(٨٦) سورة الطارق مكية وآياتها سبع عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِن
كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والسماء والطارق ، وما أدراك ما الطارق ، النجم الثاقب ، إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ اعلم أنه تعالى أكثر فى كتابه ذكر السماء والشمس والقمر لأن أحوالها فى أشكالها وسيرها ومطالعها ومغاربها عجيبة ، وأما الطارق فهو كل ما أتاك ليلا سواء كان كوكبا أو غيره فلا يكون الطارق نهاراً ، والدليل عليه قول المسلمين فى دعائهم : نعوذ بالله من طوارق الليل وروى أنه عليه السلام « نهى عن أن يأتى الرجل أهله طروقاً » والعرب تستعمل الطروق فى صفة الخيال لأن تلك الحالة إنما تحصل فى الأكثر فى الليل ، ثم إنه تعالى لما قال (والطارق) كان هذا مما لا يستغنى سامعه عن معرفة المراد منه ، فقال (وما أدراك ما الطارق) قال سفيان بن عيينة كل شىء فى القرآن ما أدراك فقد أخبر الرسول به وكل شىء فيه مايدريك لم يخبر به كقوله (وما يدريك لعل الساعة قريب) ثم قال (النجم الثاقب) أى هو طارق عظيم الشأن ، رفيع القدر وهو النجم الذى يهتدى به فى ظلمات البر والبحر ويوقف به على أوقات الأمطار ، وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إنما وصف النجم بكونه ثاقباً لوجوه (أحدها) أنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه كما قيل درى لأنه يدرؤه أى يدفعه (وثانيها) أنه يطلع من المشرق نافذاً فى الهواء كالشىء الذى يثقب الشىء (وثالثها) أنه الذى يرى به الشيطان فيثقبه أى ينفذ فيه ويحرقه (ورابعها) قال الفراء (النجم الثاقب) هو النجم المرتفع على النجوم ، والعرب تقول للطائر إذا لحق ببطن السماء ارتفاعاً قد ثقب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنما وصف النجم بكونه طارقاً ، لأنه يبدو بالليل ، وقد عرفت أن ذلك يسمى طارقاً ، أو لأنه يطرق الجنى ، أى يصكه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا فى قوله (النجم الثاقب) قال بعضهم : أشير به إلى جماعة النجو

فقيل الطارق ، كما قيل (إن الإنسان لفى خسر) وقال آخرون : أنه نجم بعينه ، ثم قال ابن زيد : إنه الثريا ، وقال الفراء : أنه زحل ، لأنه يثقب بنوره سمك سبع سموات ، وقال آخرون : أنه الشهب التى يرجم بها الشياطين ، لقوله تعالى (فأتبعه شهاب ثاقب) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ روى أن أبا طالب أتى النبى ﷺ ، فأتحفه بخبز ولبن ، فبينما هو جالس يأكل إذ انحط نجم فامتلأ ماء ثم ناراً ، ففزع أبو طالب ، وقال أى شيء هذا ؟ فقال هذا نجم رمى به ، وهو آية من آيات الله ، فعجب أبوطالب ، ونزلت السورة .

واعلم أنه تعالى لما ذكر المقسم به أتبعه بذكر المقسم عليه ، (إن كل نفس لما عليها حافظ) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى قوله (لما) قراءتان (إحداهما) قراءة ابن كثير وأبى عمرو ونافع والكسائى ، وهى بتخفيف الميم (والثانية) قراءة عاصم وحمزة والنخعى بتشديد الميم . قال أبو على الفاسى : من خفف كانت (إن) عنده المخففة من الثقيلة ، واللام فى (لما) هى التى تدخل مع هذه المخففة لتخلصها من إن النافية ، وما صلة كالتى فى قوله (فبما رحمة من الله) (وعما قليل) وتكون (إن) متلقية للقسم ، كما تتلقاه مثقلة . وأما من ثقل فتكون (إن) عنده النافية ، كالتى فى قوله (ما إن مكنا كم) و (لما) فى معنى ألا ، قال وتستعمل (لما) بمعنى ألا فى موضعين (أحدهما) هذا (والآخر) فى باب القسم ، تقول : سألتك بالله لما فعلت ، بمعنى ألا فعلت . وروى عن الأخفش والكسائى وأبى عبيدة أنهم قالوا : لم توجد لما بمعنى ألا فى كلام العرب . قال ابن عون قرأت عند ابن سيرين (لما) بالتشديد ، فأنكره وقال : سبحان الله ، سبحان الله ، وزعم العتبى أن (لما) بمعنى ألا ، مع أن الخفيفة التى تكون بمعنى ما موجودة فى لغة هذيل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ليس فى الآية بيان أن هذا الحافظ من هو ، وليس فيها أيضاً بيان أن الحافظ يحفظ النفس عماذا . أما (الأول) ففيه قولان (الأول) قول بعض المفسرين : أن ذلك الحافظ هو الله تعالى . أما فى التحقيق فلأن كل وجود سوى الله ممكن ، وكل ممكن فإنه لا يترجح وجوده على عدمه إلا لمرجح وينتهى ذلك إلى الواجب لذاته ، فهو سبحانه القيوم الذى بحفظه وإبقائه تبقى الموجودات ، ثم إنه تعالى بين هذا المعنى فى السموات والأرض على العموم فى قوله (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) وبينه فى هذه الآية فى حق الإنسان على الخصوص وحقيقة الكلام ترجع إلى أنه تعالى أقسم أن كل ما سواه ، فإنه ممكن الوجود محدث محتاج مخلوق مربوب هذا إذا حملنا النفس على مطلق الذات ، أما إذا حملناها على النفس المتنفسة وهى النفس الحيوانية أمكن أن يكون المراد من كونه تعالى حافظاً لها كونه تعالى عالماً بأحوالها وموصلا إليها جميع منافعها ودافعاً عنها جميع مضارها .

﴿ والقول الثانى ﴾ أن ذلك الحافظ هم الملائكة كما قال (ويرسل عليكم حفظة) وقال عن

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾

اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) وقال (وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين) وقال (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) .

﴿ وأما البحث الثانى ﴾ وهو أنه ما الذى يحفظه هذا الحافظ ؟ ففيه وجوه (أحدها) أن هؤلاء الحفظة يكتبون عليه أعماله دقيقها وجليلها حتى تخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً (وثانيها) (إن كل نفس لما عليها حافظ) يحفظ عملها ورزقها وأجلها ، فإذا استوفى الإنسان أجله ورزقه قبضه إلى ربه ، وحاصله يرجع إلى وعيد الكفار وتسلية النبى ﷺ كقوله (فلا تعجل عليهم إنما نعدلهم عداً) ثم ينصرفون عن قريب إلى الآخرة فيجازون بما يستحقونه (وثالثها) إن كل نفس لما عليها حافظ ، يحفظها من المعاطب والمهالك فلا يصيبها إلا ما قدر الله عليها (ورابعها) قال الفراء إن كل نفس لما عليها حافظ يحفظها حتى يسلمها إلى المقابر ، وهذا قول الكلبى .

واعلم أنه تعالى لما أقسم على أن لكل نفس حافظاً يراقبها ويعد عليها أعمالها ، فحينئذ يحق لكل أحد أن يجتهد ويسعى فى تحصيل أهم المهمات ، وقد تطابقت الشرائع والعقول على أن أهم المهمات معرفة المبدأ ومعرفة المعاد ، واتفقوا على أن معرفة المبدأ مقدمة على معرفة المعاد ، فلهذا السبب بدأ الله تعالى بعد ذلك بما يدل على المبدأ .

فقال ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الدفق صب الماء ، يقال دفقت الماء ، أى صببته وهو مدفوق ، أى مصبوب ، ومندفق أى منصب ، ولما كان هذا الماء مدفوقاً اختلفوا فى أنه لم وصف بأنه دافق على وجوه (الأول) قال الزجاج : معناه ذو اندفاق ، كما يقال : دراع وفارس ونابل ولابن وتامر ، أى ذو درع وفرس ونبل ولبن وتمر ، وذكر الزجاج أن هذا مذهب سيبويه (الثانى) أنهم يسمون المفعول باسم الفاعل . قال الفراء : وأهل الحجاز أفعل لهذا من غيرهم ، يجعلون المفعول فاعلا إذا كان فى مذهب النعت ، كقوله سر كاتم ، وهم ناصب ، وليل نائم ، وكقوله تعالى (فى عيشة راضية) أى مرضية (الثالث) ذكر الخليل فى الكتاب المنسوب إليه دفق الماء دفقاً ودفوقاً إذا انصب بمرة ، واندفق الكوز إذا انصب بمرة ، ويقال فى الطيرة عند انصباب الكوز ونحوه دافق خير ، وفى كتاب قطرب : دفق الماء يدفق إذا انصب (الرابع) صاحب الماء لما كان دافقاً أطلق ذلك على الماء على سبيل المجاز .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرىء الصلب بفتحتين ، والصلب بضمتين ، وفيه أربع لغات : صلب وصلب وصلب وصالب :

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ترائب المرأة عظام صدرها حيث تكون القلادة ، وكل عظم من ذلك تريبة ، وهذا قول جميع أهل اللغة . قال امرؤ القيس :

ترائبها مصقولة كالسجنجل

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى هذه الآية قولان (أحدهما) أن الولد مخلوق من الماء الذى يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة . وقال آخرون . إنه مخلوق من الماء الذى يخرج من صلب الرجل وترائبه ، واحتج صاحب القول الثانى على مذهبه بوجهين (الأول) أن ماء الرجل خارج من الصلب فقط ، وماء المرأة خارج من الترائب فقط ، وعلى هذا التقدير لا يحصل هناك ماء خارج من بين الصلب والترائب ، وذلك على خلاف الآية (الثانى) أنه تعالى بين أن الإنسان مخلوق (من ماء دافق) والذى يوصف بذلك هو ماء الرجل ، ثم عطف عليه بأن وصفه بأنه يخرج ، يعنى هذا الدافق من بين الصلب والترائب ، وذلك يدل على أن الولد مخلوق من ماء الرجل فقط (أجاب) القائلون بالقول الأول عن الحجة الأولى : أنه يجوز أن يقال للشيئين المتباينين أنه يخرج من بين هذين خير كثير ، ولأن الرجل والمرأة عند اجتماعهما يصيران كالشىء الواحد ، فحسن هذا اللفظ هناك ، وأجابوا عن الحجة الثانية : بان هذا من باب إطلاق اسم البعض على الكل ، فلما كان أحد قسمى المنى دافقاً أطلق هذا الاسم على المجموع ، ثم قالوا : والذى يدل على أن الولد مخلوق من مجموع الماءين أن منى الرجل وحده صغير فلا يكفى ، ولأنه روى أنه عليه السلام قال « إذا غلب ماء الرجل يكون الولد ذكراً ويعود شبه إليه وإلى أقاربه ، وإذا غلب ماء المرأة فإليها وإلى أقاربها يعود الشبه » وذلك يقتضى صحة القول الأول .

واعلم أن الملحدين طعنوا فى هذه الآية ، فقالوا إن كان المراد من قوله (يخرج من بين الصلب والترائب) أن المنى إنما ينفصل من تلك المواضع فليس الأمر كذلك ، لأنه إنما يتولد من فضلة الهضم الرابع ، وينفصل عن جميع أجزاء البدن حتى يأخذ من كل عضو طبيعته وخاصيته ، فيصير مستعداً لأن يتولد منه مثل تلك الأعضاء ، ولذلك فإن المفرط فى الجماع يستولى الضعف على جميع أعضائه ، وإن كان المراد أن معظم أجزاء المنى يتولد هناك فهو ضعيف ، بل معظم أجزائه إنما يتربى فى الدماغ ، والدليل عليه أن صورته يشبه الدماغ ، ولأن المكثر منه يظهر الضعف أولا فى عينيه ، وإن كان المراد أن مستقر المنى هناك فهو ضعيف ، لأن مستقر المنى هو أوعية المنى ، وهى عروق ملتف بعضها بالبعض عند البيضتين ، وإن كان المراد أن مخرج المنى هناك فهو ضعيف ، لأن الحس يدل على أنه ليس كذلك (الجواب) لا شك أن أعظم الأعضاء معونة فى توليد المعنى هو الدماغ ، والدماغ خليفة وهى النخاع وهو فى الصلب ، وله شعب كثيرة نازلة

إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾

إلى مقدم البدن وهو التربية ، فلهذا السبب خص الله تعالى هذين العضوين بالذكر ، على أن كلامكم فى كيفية تولد المنى ، وكيفية تولد الأعضاء من المنى محض الوهم والظن الضعيف ، وكلام الله تعالى أولى بالقبول .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قد بينا فى مواضع من هذا الكتاب أن دلالة تولد الإنسان عن النطفة على وجود الصانع المختار من أظهر الدلائل ، لوجوه (أحدها) أن التركيبات العجيبة فى بدن الإنسان أكثر ، فيكون تولده عن المادة البسيطة أدل على القادر المختار (وثانيها) أن اطلاع الانسان على أحوال نفسه أكثر من اطلاعه على أحوال غيره ، فلا جرم كانت هذه الدلالة أتم (وثالثها) أن مشاهدة الإنسان لهذه الأحوال فى أولاده وأولاد سائر الحيوانات دائمة ، فكان الاستدلال به على الصانع المختار أقوى (ورابعها) وهو أن الاستدلال بهذا الباب ، كما أنه يدل قطعاً على وجود الصانع المختار الحكيم ، فكذلك يدل قطعاً على صحة البعث والحشر والنشر ، وذلك لأن حدوث الإنسان إنما كان بسبب اجتماع أجزاء كانت متفرقة فى بدن الوالدين ، بل فى جميع العالم ، فلما قدر الصانع على جميع تلك الأجزاء المتفرقة حتى خلق منها إنساناً سوياً ، وجب أن يقال إنه بعد موته وتفرق أجزائه لا بد وأن يقدر الصانع على جمع تلك الأجزاء وجعلها خلقاً سوياً ، كما كان أولا ولهذا السر لما بين تعالى دلالته على المبدأ ، فرع عليه أيضاً دلالته على صحة المعاد ،

فقال ﴿ إنه على رجعه لقادر ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الضمير فى أنه للخالق مع أنه لم يتقدم ذكره ، والسبب فيه وجهان (الأول) دلالة خلق عليه ، والمعنى أن ذلك الذى خلق قادر على رجعه (الثانى) أنه وإن لم يتقدم ذكره لفظاً ، ولكن تقدم ذكر ما يدل عليه سبحانه ، وقد تقرر فى بدائة العقول أن القادر على هذه التصرفات ، هو الله سبحانه وتعالى ، فلما كان ذلك فى غاية الظهور كان كالمذكور .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الرجع مصدر رجعت الشىء إذا رددته ، والكناية فى قوله على رجعه إلى أى شىء ترجع ؟ فيه وجهان (أولها) وهو الأقرب أنه راجع إلى الإنسان ، والمعنى أن الذى قدر على خلق الإنسان ابتداء وجب أن يقدر بعد موته على رده حياً ، وهو كقوله تعالى (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) وقوله (وهو أهون عليه) (وثانيهما) أن الضمير غير عائد إلى الإنسان ، ثم قال مجاهد قادر على أن يرد الماء فى الإحليل ، وقال عكرمة والضحاك على أن يرد الماء فى الصلب . وروى أيضاً عن الضحاك أنه قادر على رد الإنسان ماء كما كان قبل ، وقال مقاتل بن حيان ، إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب ، ومن الشباب إلى الصبا ، ومن الصبا

يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾

إلى النطفة ، واعلم أن القول الأول أصح ، ويشهد له قوله (يوم تبلى السرائر) أى أنه قادر على بعثه يوم القيامة ، ثم إنه سبحانه لما أقام الدليل على صحة القول بالبعث والقيامة ، وصف حاله فى ذلك اليوم فقال ﴿ يوم تبلى السرائر ، فما له من قوة ولا ناصر ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (يوم) منصوب برجعه ومن جعل الضمير فى رجعه للماء وفسره برجعه إلى مخرجه من الصلب والترائب أو إلى الحالة الأولى نصب الظرف بقوله (فما له من قوة) أى ماله من قوة ذلك اليوم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (تبلى) أى تختبر ، والسرائر ما أسر فى القلوب من العقائد والنيات ، وما أخفى من الأعمال ، وفى كيفية الابتلاء والاختبار ههنا أقوال :

﴿ الأول ﴾ ما ذكره القفال معنى الاختبار ههنا أن أعمال الانسان يوم القيامة تعرض عليه وينظر أيضاً فى الصحيفة التى كتبت الملائكة فيها تفاصيل أعمالهم ليعلم أن المذكور هل هو مطابق للمكتوب ، ولما كانت المحاسبة يوم القيامة واقعة على هذا الوجه جاز أن يسمى هذا المعنى ابتلاء ، وهذه التسمية غير بعيدة لعباده لأنها ابتلاء وامتحان ، وإن كان عالماً بتفاصيل ما عملوه وما لم يعملوه .

﴿ والوجه الثانى ﴾ أن الأفعال إنما يستحق عليها الثواب والعقاب لوجوهها ، فرب فعل يكون ظاهره حسناً وباطنه قبيحاً ، وربما كان بالعكس . فاختبارها ما يعتبر بين تلك الوجوه المتعارضة من المعارضة والترجيح ، حتى يظهر أن الوجه الراجح ما هو ، والمرجوح ماهو .

﴿ الثالث ﴾ قال أبو مسلم بلوت يقع على إظهار الشىء ويقع على امتحانه كقوله (ونبلو أخباركم) وقوله (ولنبلونكم) ثم قال المفسرون (السرائر) التى تكون بين الله وبين العبد تختبر يوم القيامة حتى يظهر خيرها من سرها ومؤديها من مضيعها ، وهذا معنى قول ابن عمر رضى الله عنهما : يبدى الله يوم القيامة كل سر منها ، فيكون زيناً فى الوجوه وشينا فى الوجوه ، يعنى من أداها كان وجهه مشرقاً ومن ضيعها كان وجهه أغبر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ دلت الآية على أنه لا قوة للعبد ذلك اليوم ، لأن قوة الانسان إما أن تكون له لذاته أو مستفادة من غيره ، فالأول منفى بقوله تعالى (فما له من قوة) والثانى منفى بقوله (ولا ناصر) والمعنى ماله من قوة يدفع بها عن نفسه ما حل من العذاب (ولا ناصر) ينصره فى دفعه ولا شك أنه زجر وتحذير ، ومعنى دخول من فى قوله (من قوة) على وجه النفى لقليل ذلك وكثيره ، كأنه قيل ماله من شىء من القوة ولا أحد من الأنصار .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ يمكن أن يتمسك بهذه الآية فى نفى الشفاعة ، كقوله تعالى (واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً) إلى قوله (ولا هم ينصرون) ، (الجواب) ما تقدم ،

وَالسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾
وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ
ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع ، إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل إنهم يكيدون كيداً ، وأكيد كيداً ، فمهل الكافرين أمهلهم رويداً ﴾ .

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما فرغ من دليل التوحيد ، والمعاد أقسم قسما آخر ، أما قوله (والسماء ذات الرجع) فنقول : قال الزجاج الرجع المطر لأنه يجيء ويتكرر . واعلم أن كلام الزجاج وسائر أئمة اللغة صريح فى أن الرجع ليس اسماً موضوعاً للمطر بل سمى رجعاً على سبيل المجاز ، ولحسن هـذا المجاز وجوه (أحدها) قال القفال كأنه من ترجيع الصوت وهو إعادته ووصل الحروف به ، فكذا المطر لكونه عائداً مرة بعد أخرى سمى رجعاً (وثانيها) أن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض ثم يرجعه إلى الأرض (وثالثها) أنهم أرادوا التفاؤل فسموه رجعاً ليرجع (ورابعها) أن المطر يرجع فى كل عام ، إذا عرفت هـذا فنقول للمفسرين أقوال (أحدها) قال ابن عباس (والسماء ذات الرجع) أى ذات المطر ترجع لمطر بعد مطر (وثانيها) رجع السماء إعطاء الخير الذى يكون من جهتها حالا بعد حال على مرور الأزمان ترجعه رجعاً ، أى تعطيه مرة بعد مرة (وثالثها) قال ابن زيد هو أنها ترد وترجع شمسها وقمرها بعد مغيبهما ، والقول هو الأول ، أما قوله تعالى (والأرض ذات الصدع) فاعلم أن الصدع هو الشق ومنه قوله تعالى (يومئذ يصدعون) أى يتفرقون وللمفسرين أقوال قال ابن عباس تنشق عن النبات والأشجار ، وقال مجاهد : هو الجبلان بينهما شق وطريق نافذ . كما قال تعالى (وجعلنا فيها فجاجاً سبلا) وقال الليث : الصدع نبات الأرض ، لأنه يصدع الأرض فتنصدع به ، وعلى هذا سمى النبات صدعاً لأنه صادع للأرض ، واعلم أنه سبحانه كما جعل ، كيفية خلقة الحيوان دليلا على معرفة المبدأ والمعاد ، ذكر فى هذا القسم كيفية خلقة النبات ، فالسماء ذات الرجع كالأب ، والأرض ذات الصدع كالأم وكلاهما من النعم العظام لأن نعم الدنيا موقوفة على ماينزل من السماء من المطر متكرراً ، وعلى ما ينبت من الأرض كذلك ، ثم إنه تعالى أردف هذا القسم بالمقسم عليه فقال (إنه لقول فصل) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى هذا الضمير قولان :

﴿ الأول ﴾ ما قال القفال وهو أن المعنى أن ما أخبرتكم به من قدرتى على إحيائكم فى اليوم

الذى تبلى فيه سرائركم قول فصل وحق .

﴿ والثانى ﴾ أنه عائد إلى القرآن أى القرآن فاصل بين الحق والباطل كما قيل له فرقان ، والأول أولى لأن عود الضمير إلى المذكور السالف أولى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (قول فصل) أى حكم ينفصل به الحق عن الباطل ، ومنه فصل الخصومات وهو قطعها بالحكم ، ويقال هذا قول فصل أى قاطع المراء والنزاع ، وقال بعض المفسرين معناه أنه جد حق لقوله (وما هو بالهزل) أى باللعب . والمعنى أن القرآن أنزل بالجد ، ولم ينزل باللعب ، ثم قال (وما هو بالهزل) والمعنى أن البيان الفصل قد يذكر على سبيل الجد والاهتمام بشأنه وقد يكون على غير سبيل الجد وهذا الموضع من ذلك . ثم قال (إنهم يكيدون كيداً) وذلك الكيد على وجوه . منها بالقاء الشبهات كقولهم (إن هي إلا حياتنا الدنيا ، من يحيي العظام وهي رميم ، أجعل الآلهة إلهاً واحداً ، لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، فهي تملى عليه بكرة وأصيلا) ومنها بالطعن فيه بكونه ساحراً وشاعراً ومجنوناً ، ومنها بقصد قتله على ماقاله (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك) ثم قال (وأكيد كيداً) .

واعلم أن الكيد فى حق الله تعالى محمول على وجوه : (أحدها) دفعه تعالى كيد الكفرة عن محمد عليه الصلاة والسلام ويقابل ذلك الكيد بنصرته وإعلاء دينه تسمية لأحد المتقابلين باسم كقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وقال الشاعر :

ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وكقوله تعالى (نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، يخادعون الله وهو خادعهم) (وثانيها) أن كيده تعالى بهم هو امهاله إياهم على كفرهم حتى يأخذهم على غرة . ثم قال (فمهل الكافرين) أى لا تدع بهلاكهم ولا تستعجل ، ثم إنه تعالى لما أمره بامهالهم بين أن ذلك الإمهال المأمور به قليل ، فقال (أمهلهم رويداً) فكرر وخالف بين اللفظين لزيادة التسكين من الرسول عليه الصلاة والسلام والتصبر وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال أبو عبيدة : إن تكبير رويد رود . وأنشد :

يمشي ولا تكلم البطحاء مشيته ... كأنه ثمل يمشي على ورد

أى على مهلة ورفق وتؤدة ، وذكر أبو على فى باب أسماء الأفعال رويداً زيداً يريد أرود زيداً ، ومعناه أمهله وارفق به ، قال النحويون رويد فى كلام العرب على ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون اسما للأمر كقولك رويد زيداً تريد أرود زيداً أى خله ودعه وارفق به ولا تنصرف رويد فى هذا الوجه لأنها غير متمكنة (والثانى) أن يكون بمنزلة سائر المصادر فيضاف إلى ما بعده كما تضاف المصادر تقول رويد زيد ، كما تقول ضرب زيد قال تعالى (فضرب الرقاب) ، (والثالث) أن يكون نعتاً منصوباً كقولك ساروا سيراً رويداً ، ويقولون أيضاً ساروا رويداً ، يحذفون المنعوت

ويقيمون رويداً مقامه كما يفعلون بسائر النعوت المتمكنة ، ومن ذلك قول العرب ضعه رويداً أى وضعاً رويداً ، وتقول للرجل يعالج الشيء الشيء رويداً ، أى علاجا رويداً ، ويجوز فى هذا الوجه أمران (أحدهما) أن يكون رويداً حالا (والثانى) أن يكون نعتاً فإن أظهرت المنعوت لم يجز أن يكون للحال ، والذى فى الآية هو ماذكرنا فى الوجه الثالث ، لأنه يجوز أن يكون نعتاً للمصدر كأنه قيل إمهالا رويداً ، ويجوز أن يكون للحال أى أمهلهم غير مستعجل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ منهم من قال (أمهلهم رويداً) إلى يوم القيامة وإنما صغر ذلك من حيث علم أن كل ما هو آت قريب ، ومنهم من قال : أمهلهم رويداً إلى يوم بدر والأول أولى ، لأن الذى جرى يوم بدر وفى سائر الغزوات لا يعم الكل ، وإذا حمل على أمر الآخرة عم الكل ، ولا يمتنع مع ذلك أن يدخل فى جملته أمر الدنيا ، مما نالهم يوم بدر وغيره . وكل ذلك زجر وتحذير للقوم ، وكما أنه تحذير لهم فهو ترغيب فى خلاف طريقهم فى الطاعات ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة «الطارق»

مَكِّيَّةٌ، وهى سبع عشرة آية

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ قَسَمان: «السماء» قَسَمٌ، و«الطارِقُ» قَسَم. والطارق: النَّجم. وقد بيَّنه الله تعالى بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾. واختُلف فيه؛ فقيل: هو زُحَل، الكوكب الذي في السماء السابعة؛ ذكره محمد بن الحسن في تفسيره، وذكر له أخباراً، الله أَعْلَمُ بصحَّتها[١].

وقال ابن زيد: إنَّه الثُّريَّا. وعنه أيضاً أنَّه زُحَل[٢]. وقاله الفرَّاء[٣].

ابن عباس: هو الجَدْي[٤]. وعنه أيضاً وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ والفرَّاء: «النجم الثاقِب»: نجمٌ في السماء السابعة، لا يسكنُها غيرُه من النجوم؛ فإذا أخَذَت النجومُ أَمْكِنَتَها من السماء، هبط فكان معها، ثم يرجع إلى مكانه من السماء السابعة، وهو زُحَل؛ فهو طارقٌ حين ينزل، وطارقٌ حين يصعد[٥]. وحكى الفراء[٦]: ثَقَبَ الطائرُ: إذا ارتفع وعَلاَ.

---

(١) التعريف والإعلام ص١٨٢ ، ومحمد بن الحسن هو أبو بكر النقاش.

(٢) أخرج القولين الطبري ٢٤/ ٢٩٠ .

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٤ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٥ .

(٥) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ٨١ عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولم نقف عليه عن علي ﷺ والفراء.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٤ .

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ قاعداً مع أبي طالب، فانحطَّ نجم، فامتلأت الأرضُ نوراً، ففزع أبو طالب وقال: أيُّ شيءٍ هذا؟ فقال: «هذا نجمٌ رُميَ به، وهو آيةٌ من آيات الله» فعَجِبَ أبو طالب، ونزل: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾[1].

وروي عن ابن عباس أيضاً «والسماءِ والطارِقِ»: وما يَطْرُقُ فيها[2].

وعن ابن عباس وعطاء: «الثاقب»: الذي تُرْمَى به الشياطين[3].

قتادةُ: هو عامٌّ في سائر النجوم؛ لأنَّ طلوعها بليلٍ، وكلُّ مَن أتاك ليلاً فهو طارِقٌ[4]؛ قال:

ومِثْلِك حُبْلَى قد طَرَقْتُ ومُرضِعًا فأَلْهَيْتُها عن ذِي تَمائِمَ مُغْيِلِ[5]

وقال:

ألم تَرَيانِي كلَّما جِئتُ طارقًا وَجَدْتُ بها طيبًا وإنْ لم تَطَيَّبِ[6]

فالطارق: النجم، اسمُ جنسٍ، سمِّي بذلك لأنه يَطْرقُ ليلاً، ومنه الحديث: «نهى النبيُّ ﷺ أن يَطْرُقَ المسافر أهلَه ليلاً، كي تَسْتَحِدَّ المُغِيبةُ، وتَمْتَشِطَ الشَّعِثة»[7].

---

(١) ذكره البغوي ٤/ ٤٧٢ عن الكلبي، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص٤٨٤ ، والزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٤١ ، والثعلبي كما في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٣ دون نسبة.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٨٨ .

(٣) ذكره أبو الليث ٣/ ٤٦٧ عن الحسن البصري.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٦٥ ، والطبري ٢٤/ ٢٨٩ بلفظ: ﴿وَٱلطَّارِقِ﴾ قال: ظهور النجوم، يقول: تَطْرُقك ليلاً.

(٥) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٢ ، وسلف عند تفسير الآية (٨٤) من سورة ص . قال الشارح: مَن نصب مثلك، فعلى قوله: طرقت، ومن خفضه فعلى معنى رُبَّ. والمغيل: المرضَع وأمه حبلى، أو المرضَع وأمه تُجامع.

(٦) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٤١ ، وسلف ١٧/ ٤٨١ .

(٧) أخرجه بنحوه أحمد (١٤١٨٤)، والبخاري (١٨٠١) و(٥٢٤٣-٥٢٤٧)، ومسلم ص١٥٢٧ ، قوله: المُغيبة، هي التي غاب عنها زوجها. شرح النووي لصحيح مسلم ١٣/ ٧١ .

والعربُ تسمِّي كلَّ قاصدٍ في الليل طارقًا. يقال: طَرَقَ فلانٌ: إذا جاء بليل. وقد طَرَقَ يَطْرُقُ طُروقًا، فهو طارق. ولابن الروميِّ:

يا راقدَ الليلِ مسروراً بأوَّلِهِ ... إنَّ الحوادثَ قد يَطْرُقْنَ أسحارا
لا تَفْرَحَنَّ بليلٍ طابَ أوَّلُه ... فرُبَّ آخِرِ ليلٍ أجَّجَ النَّارا[١]

وفي «الصِّحاح»: والطارق: النجمُ الذي يقال له كوكبُ الصُّبح. ومنه قولُ هند:

نحنُ بناتُ طارقِ ... نمشي على النمارقِ

أي: إنَّ أبانا في الشَّرف كالنجم المضيء[٢].

الماوَرْديُّ: وأصلُ الطَّرْق: الدَّقُّ، ومنه سمِّيت المِطْرقة، فسمِّي قاصدُ الليلِ طارقًا؛ لاحتياجه في الوصول إلى الدَّق[٣].

وقال قومٌ: إنه قد يكون نهاراً. والعربُ تقول: أتيتُك اليومَ طَرْقَتين، أي: مرَّتين. ومنه قولُه ﷺ: «أعوذُ بكَ مِن شَرِّ طَوارِقِ الليلِ والنَّهار، إلَّا طارقاً يَطْرُقُ بخيرٍ يا رحمن»[٤]. وقال جرير في الطُّروق:

طَرَقَتْكَ صائدةُ القلوبِ وليس ذا ... حينَ الزيارة فارجِعي بسلامِ[٥]

ثم بيَّن فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ والثاقبُ: المضيءُ. ومنه: ﴿شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ [الصافات: ١٠]. يقال: ثَقَبَ يَثْقُبُ ثُقُوبًا وثَقَابةً: إذا أضاء. وثُقوبُه: ضَوْءُه.

---

(١) البيتان ليسا في ديوان ابن الرومي، والأول منهما نسبه المرزباني في معجم معجم الشعراء ص٣٧١ لمحمد بن حازم الباهلي، ونسبه الثعالبي في التمثيل والمحاضرة ص٥٣ لعدي بن زيد العبادي. وهو دون نسبة في البيان والتبيين للجاحظ ٣/ ٢٠٢ . وذكر في كتاب الحيوان ٦/ ٥٠٨ أن أبا عبد الحميد المكفوف كان يتمثل به في قصصه. وذكر البيتين دون نسبة ابن عرب شاه في فاكهة الخلفاء ص٣٩٥ .

(٢) الصحاح (طرق)، والبيت في طبقات ابن سعد ٢/ ٤٠ ، وورد ضمن حديث للزبير ﷺ في مسند البزار (٩٧٩).

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٤٥ .

(٤) سلف ١٦/ ١٦٧ .

(٥) النقائض ١/ ٢٧٠ ، والخزانة ٥/ ٤٣١ .

والعربُ تقول: أَثْقِبْ نارَك، أي: أَضِئْها. قال:

أذاعَ بـه فـي الـنـاسِ حـتـى كـأنـه بـعـلـيـاءَ نـارٌ أُوْقِـدَتْ بـثـقُـوبِ[1]

الثَّقوب: ما تُشْعَلُ به النارُ من دِقاق العِيدان.

وقال مجاهد: الثاقب: المتوهِّج[2].

القشيريُّ: والمُعْظَمُ على أنَّ الطارقَ والثاقبَ اسمُ جنسٍ أُرِيدَ به العُمومُ، كما ذكرنا عن مجاهد.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ تفخيمًا لشأن هذا المُقْسَمِ به. وقال سفيان: كلُّ ما في القرآن: «وما أَدْراكَ»، فقد أَخْبَره به، وكلُّ شيء قال فيه: «وما يدريك»، لم يُخْبِره به[3].

قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾

قال قتادةُ: حَفَظةٌ يحفظون عليكَ رِزقكَ وعملكَ وأَجَلك[4]. وعنه أيضاً قال: قرينُه يَحْفظُ عليه عملَه من خيرٍ أو شرٍّ[5]. وهذا هو جوابُ القَسَم. وقيل: الجوابُ: «إنَّه على رَجْعِهِ لقادِر» في قول الترمذيِّ محمد بنِ عليٍّ[6].

و«إنْ» مخفَّفةٌ من الثقيلة، و«ما» مؤكِّدة، أي: إنْ كلُّ نفسٍ لعليها حافظ. وقيل: المعنى: إنْ كلُّ نفسٍ إلَّا عليها حافظ[7]، يحفظُها من الآفات، حتى يُسْلِمها إلى

---

(١) البيت لأبي الأسود الدِّيلي، كما في الحيوان ٥/ ٦٠١، والأضداد لابن الأنباري ص٢١٤، والخزانة ١/ ٢٨٣.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٩٠.

(٣) سلف ٢١/ ١٨٩.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٩٢.

(٥) ذكر الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٤٦، بلفظ: الملائكة يحفظون عليه عمله...

(٦) ذكر هذا القول السمين في الدر المصون ١٠/ ٧٥٢ وقال: وفيه بعد.

(٧) وهذا القول على قراءة «لمَّا» بالتشديد، والذي قبله على القراءة بالتخفيف، حيث تكون فيه «ما» زائدة مؤكدة، كما سيرد. ينظر تفسير الطبري ٢٤/ ٢٩٠، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٣١١، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٩٨، والحجة للفارسي ٦/ ٣٩٧، والوسيط ٤/ ٤٦٤-٤٦٥.

القَدَر. قال الفراء[١]: الحافظُ من الله، يحفظُها حتى يُسْلِمَها إلى المقادير. وقاله الكلبيُّ.

وقال أبو أُمامةَ: قال النبيُّ ﷺ: «وُكِّل بالمؤمن مئةٌ وستُّون مَلَكاً يذبُّون عنه ما لم يُقَدَّرْ عليه. من ذلك البصرُ، سبعةُ أملاكٍ يَذُبُّون عنه، كما يُذَبُّ عن قصعةِ العَسَلِ الذبابُ. ولو وُكِلَ العبدُ إلى نَفْسِه طَرْفةَ عينٍ لاخْتَطَفتْه الشياطين»[٢].

وقراءةُ ابنِ عامرٍ وعاصم وحمزة: «لَمَّا» بتشديد الميم[٣]، أي: ما كلُّ نفسٍ إلَّا عليها حافظٌ، وهي لغةُ هذيل؛ يقولُ قائلُهم: نَشَدْتُكَ لمَّا قمتَ. الباقون بالتخفيف، على أنَّها زائدةٌ مؤكِّدة، كما ذَكَرْنا. ونظيرُ هذه الآية قولُه تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١] على ما تقدَّم.

وقيل: الحافظُ هو اللهُ سبحانه؛ فلولا حِفْظُه لها لم تَبْقَ.

وقيل: الحافظُ عليه عقلُه، يرشدُه إلى مصالحه، ويَكُفُّه عن مَضَارِّه[٤].

قلت: العقلُ وغيرُه وسائطُ، والحافظُ في الحقيقة هو اللهُ جلَّ وعزَّ؛ قال الله عز وجل: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾ [يوسف: ٦٥]، وقال: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ﴾ [الأنبياء: ٥٢]، وما كان مثلَه.

قوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أي: ابنُ آدمَ ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ وجهُ الاتِّصالِ بما قَبْلَه

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٥.

(٢) ذكره بهذا اللفظ الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٧١١٧)، وأخرجه بنحوه الطبراني في الكبير (٧٧٠٤)، وفي إسناده عفير بن معدان، وهو ضعيف كما ذكر الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٣.

(٣) السبعة ص٦٧٨، والتيسير ص٢٢١.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٤٦.

توصيةُ الإنسان بالنظرِ في أوَّل أمرِه وسُنَّته[١] الأُولى، حتى يعلمَ أنَّ مَن أنْشأَه قادرٌ على إعادته وجزائه، فيعمل ليومِ الإعادةِ والجزاء، ولا يُمْلي على حافِظِه إلَّا ما يسرُّه في عاقبةِ أمرِه.

و«مِمَّ خُلِق». استفهامٌ، أي: من أيِّ شيءٍ خُلِق؟ ثم قال: ﴿خُلِقَ﴾ وهو جوابُ الاستفهام ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ أي: من المنيِّ. والدَّفْقُ: صبُّ الماءِ، دَفَقْتُ الماءَ أَدْفُقُه دفقًا: صَبَبته، فهو ماءٌ دافق، أي: مدفوق، كما قالوا: سِرٌّ كاتِم، أي: مَكْتوم. لأنَّه من قولك: دُفِق الماءُ، على ما لم يُسَمَّ فاعِلُه. ولا يقال: دَفَقَ الماءُ. ويقال: دفَقَ الله رُوحَه: إذا دُعي عليه بالموت[٢].

قال الفرَّاء والأخفشُ: «من ماءٍ دافِقٍ» أي: مَصْبوبٍ في الرَّحِم. الزجَّاج[٣]: من ماءٍ ذي انْدِفاقٍ. يقال: دارِعٌ وفارِسٌ ونابِلٌ، أي: ذو فرسٍ، ودِرعٍ، ونبلٍ. وهذا مذهبُ سيبويه[٤]. فالدافقُ هو المندفقُ بشدَّة قوتِه. وأراد ماءين: ماءَ الرجلِ وماءَ المرأة؛ لأنَّ الإنسان مخلوقٌ منهما، لكِنْ جَعَلهما ماءً واحداً لامْتِزاجِهما.

وعن عكرمة عن ابن عباس: «دافِقٍ»: لَزِج.

﴿يَخْرُجُ﴾ أي: هذا الماءُ ﴿مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ﴾ أي: الظَّهْر. وفيه لغاتٌ أربعُ: صُلْب، وصُلُب ـ وقرئ بهما[٥] ـ وصَلَب بفتح اللَّام، وصالب على وزن قالب، ومنه قولُ العباس:

تُنْقَلُ من صالبٍ إلى رَحِمٍ[٦]

(١) في (ظ): ونسبته.

(٢) الصحاح (دفق). وفي تهذيب اللغة ٩/ ٣٩ : وقال الليث: يقال: دَفَق الماء دفوقاً ودفقاً إذا انصبَّ، قال الأزهري: ولم أسمع دفقت الماء فدَفَق لغير الليث. وينظر العين ٥/ ١٢٠ .

(٣) في معاني القرآن ٥/ ٣١١ .

(٤) ينظر الكتاب ٣/ ٣٨١ .

(٥) «الصُّلْب» قراءة الجمهور، و«الصُّلُب» بضمتين ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٧١ عن عيسى.

(٦) وعجزه: إذا مضى عالَمٌ بدا طَبَقُ، وسلف ١٤/ ٨٧ و ص١٧٥ من هذا الجزء .

﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ أي: الصَّدْر، الواحدةُ: تَرِيْبَة؛ وهي موضعُ القِلادةِ من الصَّدر. قال:

مُهَفْهَفَةٌ بيضاءُ غيرُ مُفَاضَةٍ تَرائبُها مَصْقولةٌ كالسَّجَنْجَلِ[1]

والصُّلْبُ من الرجل، والترائبُ من المرأة. قال ابن عباس: الترائب: موضعُ القلادة. وعنه: ما بين ثَدْيَيْها. وقاله عكرمة[2].

ورُوي عنه: يعني ترائبَ المرأة: اليدين والرجلين والعينين[3]. وبه قال الضحَّاك[4].

وقال سعيد بن جبير: هو الجِيْدُ.

مجاهد: هو ما بين المَنْكِبين والصَّدْرِ[5]. وعنه: الصَّدْر. وعنه: التراقي[6].

وعن ابن جبير عن ابن عباس: الترائب: أربعةُ أضلاعٍ من هذا الجانب[7]. وحكى الزجَّاج[8]: أنَّ الترائبَ أربعةُ أضلاعٍ من يَمنةِ الصَّدر، وأربعةُ أضلاعٍ من يَسْرةِ الصَّدر.

وقال معمر بن أبي حبيبة المَدَنيُّ: الترائبُ: عُصارةُ القلبِ، ومنها يكونُ الولد[9].

---

(١) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٥ . قال النحاس في شرح المعلقات ١/ ٢٣ : المهفهفة: الحسنة الخَلْقِ، ولا تكون مهفهفةً حتى تكون مع حُسْن خَلْقِها ضامرةَ الخاصرة. والمفاضة: المسترخية البطن. والسجنجل: المرآة، وقيل: الفضة.

(٢) في النسخ: وقال عكرمة، والمثبت هو الصواب، وأخرج هذه الأخبار الطبري ٢٤/ ٢٩٣ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٩٥ ، وذكره ابن الجوزي ٩/ ٨٣ ، وليس فيهما: يعني ترائب المرأة. وذكره مكي عن ابن عباس، كما في روح المعاني ٣٠/ ٩٧ ، وفيه: أطراف المرء، بدل: ترائب المرأة.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٩٥ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٩٤ .

(٦) ذكرهما ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٥ .

(٧) أخرجه الحاكم ٢/ ٥٢٠ بلفظ: الترائب أربعة أضلاعٍ من كل جانب من أسفل الأضلاع.

(٨) في معاني القرآن ٥/ ٣١٢ .

(٩) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٩٦ .

والمشهورُ من كلام العرب: أنَّها عظامُ الصَّدر والنحر، قال دُريد بن الصمة:

فإنْ تُدْبِروا نأخُذْكُمْ في ظهورِكُمْ وإنْ تُقْبِلوا نَأخُذْكم في الترائبِ[١]

وقال آخر:

وبَدَتْ كأنَّ ترائباً من نحرها جَمْرُ الغَضَى في ساعِدٍ تَتوقَّدُ[٢]

وقال آخر:

والزَّعْفرانُ على تَرائِبِها شَرِقٌ به اللَّبَّاتُ والنحرُ[٣]

وعن عكرمةَ: الترائبُ الصَّدر، ثم أنشد:

نِظامُ دُرٍّ على ترائبها[٤]

وقال ذو الرمّة:

ضَرَجْنَ البُرودَ عن ترائبِ حُرةٍ[٥]

أي: شَقَقْنَ. ويُروى «ضَرَحْنَ» بالحاء، أي: أَلْقَيْنَ[٦]. وفي «الصحاح»: والتَّرِيبَةُ: واحدةُ الترائب، وهي عظامُ الصدرِ، مابين التَّرْقُوةِ والثَّنْدُوة. قال الشاعر:

---

(١) ديوان دريد بن الصمة ص٢٨، والأصمعيات ص١١٢، وفيهما: يأخُذْكم، بدل: نأخذكم.

(٢) لم نقف عليه. قوله: جمر الغضى، الغضى: شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب، وجمره يبقى زماناً طويلاً لا ينطفئ. المعجم الوسيط (غضي).

(٣) البيت للمخبل، كما في اللسان (شرق)، وهو دون نسبة في معاني القرآن للفراء ٣/ ١٤٦، وتفسير الطبري ٢٢/ ٥٤٦، و٢٤/ ٢٩٦، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٠١، ووقع في هذه المصادر: شَرِقاً، بدل: شرق، وذكره في البحر ٨/ ٤٥٣ برواية: شرقت. وهو برواية المصنف في النكت والعيون ٦/ ٢٤٧، واللسان (ترب).

(٤) أخرجه عبد بن حميد، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٣٦، وفيه:

نظامُ اللؤلؤِ على ترائبها شَرِقاً به اللَّبَّاتُ والنحرُ

(٥) وعجزه: وعن أعْيُنٍ قتلننا كلَّ مقتل. وهو في الديوان ٣/ ١٤٦٧.

(٦) الصحاح (ضرج).

أَشْـرفَ ثَـديـاهـا عـلـى الـتَّـرِيـبِ[١]

وقال المثقَّبُ العَبْدِيُّ:

ومِـن ذَهَـبٍ يَـبـيـنُ[٢] عـلـى تَـرِيـبٍ كـلـونِ الـعـاجِ لـيـس بـذي غُـضـونِ

عن غير الجوهريِّ.

الثُّنْدُؤةُ للرجل: بمنزلةِ الثَّدي للمرأة. وقال الأصمعيُّ: مَغْرِزُ الثَّدْي. وقال ابنُ السِّكِّيت: هي اللحمُ الذي حَوْلَ الثَّدْيِ، إذا ضَمَمْتَ أوَّلها هَمَزْتَ، وإذا فَتَحْتَ لم تَهْمِز[٣].

وفي التفسير: يخلق من ماء الرجل الذي يخرجُ من صُلْبِه العظم والعَصَب. ومن ماء المرأة الذي يخرجُ من ترائبها اللحم والدَّم. وقاله الأعمش[٤]. وقد تقدَّم مرفوعاً في أوَّلِ سورةِ آلِ عمران[٥]. وفي «الحجرات»: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الآية: ١٣] وقد تقدَّم.

وقيل: إنَّ ماء الرجلِ ينزلُ من الدماغ، ثم يجتمعُ في الأُنْثَيين[٦]. وهذا لا يُعارِضُ قولَه: «مِن بينِ الصُّلْبِ»؛ لأنه إنْ نَزَلَ من الدِّماغ، فإنَّما يمرُّ بين الصُّلْبِ والترائب.

وقال قتادةُ: المعنى: ويخرج من صُلْبِ الرجلِ وترائبِ المرأة. وحكى الفراء[٧]

---

(١) الصحاح (ترب)، والبيت للأغلب العجلي، كما في اللسان (ترب)، وعجزه: لم يَعْدُوَا التَّفليكَ في النُّتُوبِ. فلَّك ثديها: استدار. والنتوب: النهود، وهو ارتفاعه. القاموس (فلك)، واللسان (ترب).

(٢) في (م) و(ز) وتفسير الطبري: يسن، ولم تجود في (د)، وسقط هذا الموضع من (ي)، والمثبت من (ظ) وروح المعاني ٣٠/ ٩٧ . والبيت في المفضليات ص٢٨٩ ، وتهذيب اللغة ١٤/ ٢٧٥ ، ومنتهى الطلب من أشعار العرب ٤/ ١٦ برواية: يلوح.

(٣) من قوله: الثندؤة للرجل، إلى هذا الموضع ليس في النسخ الخطية، والكلام من الصحاح (ثدأ).

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٦٦ .

(٥) ٥/ ١٤ .

(٦) أي: الخصيتين. القاموس (أنث).

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٥ .

أنَّ مِثْلَ هذا يأتي عن العرب، وعليه فيكونُ معنى «من بينِ الصُّلْب»: من الصُّلْب.

وقال الحسن: المعنى: يخرج من صُلْبِ الرجلِ وترائبِ الرجلِ، ومن صُلْبِ المرأةِ وترائبِ المرأة[1].

ثم إنَّا نعلم أنَّ النطفة من جميع أجزاء البدن؛ ولذلك يُشْبِهُ الرجلُ والديه كثيراً. وهذه الحكمةُ في غَسْلِ جميعِ الجسدِ من خروج المني. وأيضاً المكْثِرُ من الجماع يجدُ وَجَعاً في ظَهْرِه؛ وليس ذلك إلَّا لخلوِّ صُلْبِه عمَّا كان مُحْتَبِساً من الماء.

ورَوَى إسماعيلُ عن أهلِ مكة: «يخرج من بين الصُّلُب» بضمِّ اللام. ورُوِيتْ عن عيسى الثقفيِّ[2]. حكاه المهدويُّ وقال: مَن جَعَلَ المنيَّ يخرج من بين صُلْبِ الرجل وترائبه، فالضميرُ في «يَخْرجُ» للماء. ومَن جَعَلَه من بين صُلْبِ الرجلِ وترائبِ المرأة، فالضميرُ للإنسان.

وقُرِئ: «الصَّلَب»، بفتح الصَّاد واللام. وفيه أربُع لغاتٍ: صُلْبٌ وصُلُبٌ وصَلَبٌ وصَالبٌ. قال العَجَّاج:

فـي صَـلَـبٍ مِـثْـلِ الـعِـنـانِ الـمُـؤْدَمِ[3]

وفي مَدْحِ النبيِّ ﷺ:

تُـنْـقَـل مـن صَـالـبٍ إلـى رَحِـمِ[4]

الأبياتُ مشهورةٌ معروفةٌ.

(١) ذكره بنحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٥ .

(٢) القراءات الشاذة ص١٧١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦٥ .

(٣) الكشاف ٤/ ٢٤١ ، وقد سلف نحو هذا الكلام ص٢٠٦ من هذا الجزء، والبيت في ديوان العجاج ص٢٨١ ، وقبله: ريَّا العظامِ فَعْمةُ المخدَّم. قال شارح الديوان: الفَعْم: الممتلئ، والمخدَّم: موضع الخِدام، وهو الخلخال. وقال السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص١٢٣ : ريَّا: ليست بمهزولةٍ تَبِينُ عظامها، وصُلْبُها مثلُ العنان نعمةً واستواءً. والعنان المؤدم: الذي لم تُقْشَر أَدَمتُه، فهو أَلينُ له. وقوله: في صَلَب، أي: مع صَلَبٍ. وفي أساس البلاغة (عنن): امرأة معنَّنة، أي: مجدولة جَدْلَ العنان.

(٤) سلف ١٤/ ٨٧ ، و ص١٧٥ و ص٢٠٦ من هذا الجزء.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: إنَّ الله جلَّ ثناؤه ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾ أي: على ردِّ الماءِ في الإحليل، ﴿لَقَادِرٌ﴾ كذا قال مجاهدٌ والضحاك[١]. وعنهما أيضاً أنَّ المعنى: إنَّه على ردِّ الماءِ في الصُّلْب. وقاله عكرمة[٢].

وعن الضحَّاك أيضاً: أنَّ المعنى: إنَّه على ردِّ الإنسان ماءً كما كان لقادر[٣]. وعنه أيضاً أنَّ المعنى: إنه على ردِّ الإنسانِ من الكِبَر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الكبر، لقادر؛ كذا في المهدويِّ. وفي الماوردِيِّ والثعلبيِّ: إلى الصِّبا، ومن الصبا إلى النطفة[٤].

وقال ابن زيد: إنه على حَبْسِ ذلك الماءِ حتى لا يخرج، لقادر[٥].

وقال ابن عباس وقتادةُ والحسن وعكرمةُ أيضاً: إنه على ردِّ الإنسانِ بعد الموتِ لقادر[٦]. وهو اختيارُ الطبريِّ[٧]. الثعلبيُّ: وهو الأقوى؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾.

قال الماورديُّ[٨]: ويحتمل: إنه على أنْ يُعِيدَه إلى الدنيا بعد بَعْثِه في الآخرة؛ لأنَّ الكفار يَسألون الله تعالى فيها الرَّجْعةَ.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾

فيه مسألتان:

---

(١) أخرجه الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٥٥، والطبري ٢٤/ ٢٩٧ عن مجاهد.

(٢) الوسيط ٤/ ٤٦٥ عن عكرمة والضحاك، وأخرجه عن عكرمة الطبري ٢٤/ ٢٩٧.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٩٨.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٤٧، ومثله في تفسير الطبري ٢٤/ ٢٩٩، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٠٠، وزاد المسير ٩/ ٨٤.

(٥) زاد المسير ٩/ ٨٤، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٢٩٩.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٢٤٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦٦، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٢٩٩-٣٠٠ عن قتادة.

(٧) في التفسير ٢٤/ ٣٠٠.

(٨) في النكت والعيون ٦/ ٢٤٧.

الأولى: العاملُ في «يومَ» - في قولِ مَن جَعَلَ المعنى: إنَّه على بعثِ الإنسان - قولُه «لقادر»، ولا يَعْملُ فيه «رَجْعِه»؛ لمَا فيه من التَّفْرِقةِ بين الصِّلةِ والموصولِ بخبرِ «إنَّ»[(١)].

وعلى الأقوال الأُخَر التي في «إنه على رجْعِه لقادِر»، يكونُ العاملُ في «يومَ» فعلٌ مُضْمَرٌ، ولا يعملُ فيه «لقادر»؛ لأنَّ المراد: في الدنيا. و﴿تُبْلَى﴾ أي: تُمتَحَنُ وتُختَبَر؛ قال أبو الغُول الطُّهَوِيُّ:

ولا تُبْلَى بَسالَتُهُم وإنْ هُمْ صَلُوا بالحَرْب حِيناً بعدَ حِينِ[(٢)]

ويروى: «تَبْلَى بَسالتُهم»، فَمَن رواه «تُبلى» - بضم التاء - جَعَلَه من الاختبار، وتكون البسالةُ على هذه الرواية: الكراهةَ، كأنه قال: لا يُعْرفُ لهم فيها كراهةٌ. و«تُبْلى»: تُعْرَف. قال الراجز:

قد كنتَ قبلَ اليومِ تَزْدَرِيني فاليومَ أَبْلُوكَ وتَبْتَلِيني[(٣)]

أي: أَعْرِفُكَ وتَعْرِفُني. ومَن رواه: تَبْلَى - بفتح التاء - فالمعنى: أنهم لا يَضْعُفون عن الحرب وإنْ تَكَرَّرتْ عليهم زمانًا بعدَ زمانٍ. وذلك أنَّ الأمورَ الشِّدادَ إذا تَكَرَّرتْ على الإنسان هَدَّتْه وأَضْعفَتْه.

وقيل: «تُبْلَى السرائر»، أي: تخرج مخبَّآتُها وتَظْهَر، وهو كلُّ ما كان استسرَّه

---

(١) وأجاز بعض العلماء أن يكون العامل فيه «رجعه»، مثل الطبري ٢٤/ ٢٠٠ ، والزمخشري ٤/ ٢٤١ . وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٦ : قالوا: وفي المصدر من القوة بحيث يعمل وإن حال خبر إنَّ بينه وبين معموله، وقال الحذَّاق: العامل فعل مضمر تقديره: فرَجْعُه يومَ تبلى السرائر.

(٢) أمالي القالي ١/ ٢٦٠ ، والصحاح (صلي)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ١٣٩ ، والخزانة ٦/ ٤٣٣ . قال البكري في سمط اللآلي ١/ ٥٨٠ : أي: لا يختبر ما عندهم من النجدة والبأس وإن طال أمد الحرب. اهـ. وأبو الغول قال عنه الآمدي في المؤتلف والمختلف ص٢٤٥ : هو من قوم من بني طهية يقال لهم: بنو عبد شمس بن أبي سود، وكان يكنى أبا البلاد، وقيل له: أبو الغول؛ لأنه فيم زعم رأى غولاً فقتلها. وقال البغدادي في الخزانة ٦/ ٤٤٠ : لم أقف على كونه إسلاميًّا أو جاهليًّا.

(٣) ذكره الشوكاني في فتح القدير ٥/ ٤٢٠ .

الإنسانُ من خيرٍ أو شرٍّ، وأَضْمرَه من إيمانٍ أو كفر، كما قال الأَحْوَصُ:

سيَبْقَى لها[١] في مُضْمَرِ القلبِ والحَشَا سـريـرةُ وُدٍّ يـومَ تُـبْـلَـى الـسَّـرائُـر

الثانية: رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ائتَمنَ الله تعالى خَلْقَه على أربعٍ: على الصلاة، والصوم، والزكاة، والغُسْلِ، وهي السرائرُ التي يَخْتَبِرُها الله عزَّ وجلَّ يومَ القيامة»[٢]. ذَكَره المَهْدَويُّ.

وقال ابنُ عمرَ: قال النبيُّ ﷺ: «ثلاثٌ مَن حافَظَ عليها فهو وليُّ الله حقًّا، ومَن اختانَهنَّ فهو عدوُّ الله حقًّا: الصلاةُ، والصَّوْمُ، والغُسْلُ من الجنابة»[٣] ذَكَره الثعلبيُّ.

وذكر الماوَرْدِيُّ عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «الأمانةُ ثلاثٌ: الصلاةُ، والصومُ، والجنابةُ. استَأْمَنَ الله عزَّ وجلَّ ابنَ آدمَ على الصلاة، فإنْ شاء قال: صلَّيْتُ، ولم يُصَلِّ. استأمنَ الله عزَّ وجلَّ ابنَ آدمَ على الصوم، فإن شاء قال: صُمْتُ، ولم يَصُمْ. استأمنَ الله عزَّ وجلَّ ابنَ آدمَ على الجنابة، فإن شاء قال: اغْتَسَلْتُ، ولم يَغْتَسِلْ، اقرؤوا إنْ شئتُم: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[٤]»، وذكره الثعلبيُّ عن عطاء قوله[٥].

وقال مالكٌ في روايةِ أَشْهبَ عنه، وسأَلْتُه عن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾: أَبَلَغكَ أنَّ الوضوءَ مِن السَّرائر؟ قال: قد بلغني ذلك فيما يقولُ الناسُ، فأمَّا حديثٌ أُحدِّثُ به فلا[٦]. والصَّلاةُ من السرائر، والصِّيامُ من السرائر، إنْ شاء قال: صلَّيتُ، ولم يُصَلِّ. ومِن السرائرِ ما في القلوب، يجزي اللهُ به العبادَ.

---

(١) في (ظ): سيبلى لكم، وهو موافق لما في الشعر والشعراء ١/٥١٨ ، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الديوان ص٨٤ ، والخزانة ٢/١٨ .

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٢٧٥١)، والواحدي في الوسيط ٤/٤٦٦ من حديث أبي الدرداء ﷺ.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٩٥٦) من حديث أنس ﷺ. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/٢٩٣ : فيه عدي بن الفضل وهو ضعيف.

(٤) النكت والعيون ٦/٢٤٨ ، وسلف بنحوه ١٧/٢٤٥ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/٣٠٠ .

(٦) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٩٠٦ (والكلام منه): فأما حديث أخذته فلا.

قال ابن العربي: قال ابن مسعود: يُغفر للشهيدِ إلَّا الأمانةَ، والوضوءُ من الأمانة، والصلاةُ والزكاةُ من الأمانة، والوديعةُ من الأمانة، وأشدُّ ذلك الوديعةُ؛ تُمَثَّلُ له على هيئتها يومَ أَخَذَها، فيُرْمَى بها في قَعْرِ جهنَّم، فيقال له: أَخْرِجْها، فَيَتْبَعُها فيجعلها في عُنُقِه، فإذا رَجَا أن يخرج بها زَلَّتْ منه، فيتبعُها، فهو كذلك دَهْرَ الداهرين. وقال أبيُّ بن كعب: من الأمانةِ أنِ ائتُمنتِ المرأةُ على فَرْجِها[١].

قال أشهبُ: قال لي سفيان: في الحيضة والحمل، إن قالت: لم أَحِضْ وأنا حامِلٌ صُدِّقتْ، ما لم تأتِ بما يُعْرَفُ فيه أنَّها كاذبةٌ. وفي الحديث: «غُسْلُ الجنابةِ من الأمانة»[٢].

وقال ابن عمرَ: يُبدي اللهُ يومَ القيامةِ كلَّ سرٍّ خفيٍّ، فيكونُ زيناً في الوجوه، وشَيْناً في الوجوه[٣]. واللهُ عالمٌ بكلِّ شيءٍ، ولكنْ يظهر[٤] علامات الملائكةِ والمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ﴾ أي: للإنسان ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ أي: منعةٍ تَمنعُه ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ ينصرُه ممَّا نزل به. وعن عِكرمةَ «فما له مِن قوةٍ لا ناصِرٍ» قال: هؤلاء الملوكُ، مالهم يومَ القيامةِ من قوةٍ ولا ناصرٍ. وقال سفيان: القوّة: العَشِيرة. والناصر: الحلِيف[٥].

وقيل: «فماله من قوةٍ» في بدنه، و«لا ناصِرٍ» من غيره يمتنعُ به من الله. وهو معنى قولِ قتادة[٦].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٠٦ . وقول أبيٍّ ﷺ سلف ١٧/ ٢٤٥ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٠٦ ، وقوله: غسل الجنابة. . . ، أخرجه بنحوه أبو داود (٤٢٩) من حديث أبي الدرداء ﷺ موقوفاً، وسلف ١٧/ ٢٤٥ .

(٣) الوسيط ٤/ ٤٦٦ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٧٤ .

(٤) في (ظ): تظهر.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٠١-٣٠٢ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ٢٤٨ ، وأخرجه عن قتادة عبد الرزاق ٢/ ٣٦٥ ، والطبري ٢٤/ ٣٠١ .

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ أي: ذاتِ المطر. تَرجِعُ كلَّ سنةٍ بمطرٍ بعدَ مطرٍ. كذا قال عامَّةُ المفسِّرين. وقال أهلُ اللغةِ: الرَّجْعُ: المطر، وأنشدوا للمُتَنَخِّل يصفُ سيفاً شبَّهه بالماء:

أبـيـضُ كـالـرَّجْـعِ رَسُـوبٌ إذا ... مـا ثـاخ فـي مُـحْـتَـفَـلٍ يَـخْـتَـلـي[1]

قال الخليلُ: الرَّجْعُ: المطر نَفْسُه، والرَّجْعُ أيضاً: نباتُ الربيع[2]. وقيل: «ذاتِ الرَّجْعِ»، أي: ذاتِ النَّفْع[3].

وقد يُسمَّى المطرُ أيضاً أَوْبا، كما يسمَّى رَجْعاً، قال:

رَبَّـاءُ شَـمَّـاءَ لا يـأوي لِـقُـلَّـتِـهـا ... إلَّا الـسَّـحـابُ وإلَّا الأَوْبُ والـسَّـبَـلُ[4]

وقال عبد الرحمن بن زيد: الشمسُ والقمرُ والنجومُ يَرْجِعْنَ في السماء، تَطْلعُ من ناحيةٍ وتَغيبُ في أخرى[5].

وقيل: ذاتِ الملائكة؛ لرجوعهم إليها بأعمال العباد.

---

(١) ديوان الهذليين ٢/ ١٢، ومجاز القرآن ٢/ ٢٩٤، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٣١٢، وتفسير الطبري ٢٤/ ٣٠٢، والصحاح (رجع) و(ثوخ). قال شارح ديوان الهذليين: المحتفل: مُعْظَم الشيء، محتفل الوادي: معظمه، وثاخ وساخ واحد، أي: غاب. يختلي: يقطع. والرسوب: الذي إذا وقع غَمُضَ مكانه لسرعة قَطْعِه. اهـ. وقال الجوهري: ثاخت قدمه بالوحل تثوخ وتثيخ: خاضت وغابت فيه.

(٢) العين ١/ ٢٢٧.

(٣) الصحاح (رجع).

(٤) الكشاف ٤/ ٢٤١، والبيت للمتنخل الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ٢/ ٣٧ ضمن قصيدة يرثي فيها الشاعر ابنه. قوله: ربَّاء، هو صيغة مبالغة، من ربأت الجبل: إذا صعدته، فيكون رباءُ شمَّاءَ، كقولهم: طلَّاعُ أَنْجُدٍ، وهو مضاف إلى شماء، والمعنى: ربَّاءُ هضبةٍ شماءَ. وقوله: لايدنو لقلَّتها، أي: لرأسها، أي: لا يعلو هذه الهضبة من طولها إلا السحاب، والسَّبَل: المطر النازل. ينظر الخزانة ٥/ ٣-٦.

(٥) أخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٣٠٤.

وهذا قَسَمٌ. ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ قَسَمٌ آخَرُ، أي: تتصدَّعُ عن النباتِ والشَّجرِ والثِّمارِ والأَنْهارِ، نظيرُه: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ الآيةَ [عبس:٢٦]. والصَّدْعُ: بمعنى الشَّقِّ؛ لأنَّه يَصْدَعُ الأرضَ، فتنصَدِعُ به. وكأنه قال: والأرضِ ذاتِ النباتِ؛ لأنَّ النباتَ صادِعٌ للأرض[١].

وقال مجاهدٌ: والأرضِ ذاتِ الطُّرُقِ التي تَصْدَعُها المُشَاةُ. وقيل: ذاتِ الحَرْثِ؛ لأنه يَصْدَعُها. وقيل: ذاتِ الأمواتِ؛ لانْصِداعِها عنهم للنشور[٢].

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ على هذا وَقَعَ القَسَم. أي: إنَّ القرآن يَفْصِلُ بينَ الحقِّ والباطل. وقد تقدَّم في مقدمة الكتاب[٣] ما رواه الحارثُ عن عليٍّ ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «كتاب اللهِ فيه خَبَرُ ما قَبْلَكم وحُكْمُ ما بَعْدَكم، هو الفَصْلُ ليس بالهَزْلِ، مَن تَرَكَه من جَبَّارٍ قَصَمَه الله، ومَن ابْتَغَى الهُدَى في غيره أَضَلَّه الله».

وقيل: المرادُ بالقول الفَصْلِ: ما تقدَّم من الوعيدِ في هذه السورةِ، من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[٤].

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ أي: ليس القرآنُ بالباطِلِ واللَّعِب. والهَزْلُ: ضدُّ الجِدِّ، وقد هَزَلَ يَهْزِلُ. قال الكُميت:

يُـجَـدُّ بـنـا فـي كـلِّ يـومٍ ونَـهْـزِلُ[٥]

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: إنَّ أعداءَ الله ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي: يمكُرون بمحمدٍ ﷺ وأصحابِه

---

(١) أخرج هذا القول عبد الرزاق ٢/ ٣٦٥، والطبري ٢٤/ ٣٠٤ عن ابن عباس قال: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ قال: ذات النبات.

(٢) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٤٩.

(٣) ١/ ١٠-١١.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٤٩.

(٥) وصدره: أرانا على حبِّ الحياة وطولها، وهو في شرح هاشميات الكميت ص١٤٨. قال ابن زيد الأسدي الشارح: يقول: نحب أن تطول حياتنا، ونحن كلَّ يوم نقرب إلى آجالنا.

مَكْراً. ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ أي: أُجازيهم جزاءَ كَيْدِهم. وقيل: هو ما أَوْقَع الله بهم يومَ بدرٍ من القتل والأَسر.

وقيل: كَيْدُ اللهِ: استِدْراجُهم من حيث لا يعلمون. وقد مضى هذا المعنى في أوّلِ «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [الآية: ١٥] مُسْتَوفًى.

قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أَخِّرهم، ولا تَسْألِ اللهَ تعجيلَ إهلاكِهم، وارْضَ بما يُدبِّره في أمورهم. ثم نُسِخَتْ بآيةِ السيفِ: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥][١].

﴿أَمْهِلْهُمْ﴾ تأكيدٌ. ومَهَّل وأَمْهَلَ: بمعنىً، مثل: نَزَّل وأَنْزل. وأَمْهَلَه: أَنْظَرَه، ومهَّله تمهيلاً، والاسمُ: المُهْلَة. والاسْتِمهالُ: الاستنظار. وتَمهَّلَ في أمره، أي: اتَّأَدَ. واتْمَهَلَ اتْمِهْلالاً، أي: اعْتدَلَ وانْتَصبَ. والاتْمِهلالُ أيضاً: سكونٌ وفتور[٢]. ويقال: مهلاً يافلانُ، أي: رِفْقاً وسكوناً[٣].

﴿رُوَيْدًۢا﴾ أي: قريباً، عن ابن عباس. قتادة: قليلاً[٤]، والتقدير: أَمْهِلْهم إمهالاً قليلاً. والرُّوَيْد في كلام العرب: تصغيرُ رُوْد. وكذا قال أبو عبيد[٥]، وأنشد:

كأنّها ثَمِلٌ يمشي على رُودِ[٦]

(١) الوسيط ٤/ ٤٦٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦٧، ونواسخ القرآن لابن الجوزي ص٢٥١، قال ابن الجوزي: وإذا قلنا: إنه وعيد، فلا نسخ.

(٢) الصحاح (مهل).

(٣) تهذيب اللغة ٦/ ٣٢١.

(٤) أخرج القولين الطبري ٢٤/ ٣٠٧-٣٠٨.

(٥) في (د): عبيدة.

(٦) الصحاح (رود)، وصدره: تكاد لا تثلم البطحاء وطأتها، والبيت للجَموح الظَّفَري، كما في اللسان (رود)، وذكره الزمخشري في أساس البلاغة (رويد) برواية: خطوتها، بدل: وطأتها. وذكره ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ص٤٢٣ برواية: كأنها مِثْلُ مَن يمشي على رُودِ.

أي: على مَهَل. وتفسيرُ «رُوَيداً»: مَهْلاً، وتفسيرُ رُوَيْدَكَ: أَمْهِلْ؛ لأنَّ الكافَ إنَّما تَدْخُله إذا كان بمعنى أَفْعِلْ دون غيرِهِ[١]، وإنَّما حرِّكت الدالُ لالتقاءِ الساكِنَيْنِ، فنُصِبَ نَصْبَ المصادرِ، وهو مصغَّرٌ مأمورٌ به؛ لأنه تصغيرُ التَّرْخيمِ من إرواد، وهو مصدرُ أَرْوَدَ يُرْوِد[٢]. وله أربعةُ أَوْجُهٍ: اسمٌ للفعل، وصفةٌ، وحالٌ، ومصدرٌ. فالاسمُ نحوُ قولِكَ: رُوَيْدَ عَمْراً، أي: أَرْوِدْ عمراً، بمعنى أَمْهِلْه. والصفةُ نحوُ قولِكَ: ساروا سَيْراً رُوَيْداً، والحالُ نحوُ قولك: سار القومُ رُوَيْدًا، لمَّا اتَّصلَ بالمعرفة صار حالاً لها. والمصدرُ نحو قولك: رُوَيْدَ عَمرٍو بالإضافة، كقوله تعالى: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]. قال جميعهَ الجوهريُّ[٣].

والذي في الآية من هذه الوجوه أن يكون نعتًا للمصدر، أي: إمهالاً رُوَيداً. ويجوزُ أن يكون للحال، أي: أَمْهِلْهم غيرَ مستعجِلٍ لهم العذابَ. خُتِمَتِ السورة.

---

(١) وتقول رويدَكَ عمراً، أي: أَمْهِلْه وهذه الكاف للخطاب لا موضعَ لها من الإعراب لأنها ليست بِاسْم، ورويد غير مضاف إليها. وهو متعدٍّ إلى عمرو؛ لأنه اسم سمِّي به الفعل يعمل عمل الأفعال. الصحاح (رود).

(٢) وتقول: أَرْوِدْه إرواداً، بمعنى: أَمْهِلْه إمهالاً، ثم صغَّروا الإرواد تصغير الترخيم، ثم نقلوه وسمَّوْا به فِعْلَه فقالوا: رويدَ عمراً. وتصغير الترخيم: هو أن تصغر الاسم على حذف الزوائد التي فيه، كقولك في حارث: حريث، وفي سرحوب: سُرَيْحِب؛ لأن الواو فيه زائدة. ينظر المقتضب ٢/ ٢٩٣، وأوضح المسالك ص٥٤٧-٥٤٨.

(٣) في الصحاح (رود).

تفسير سورة الطارق

وهى مكية .

قال عبد الله ابن الإمام أحمد : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن محمد ـ قال : عبد الله وسمعته أنا منه ـ حدثنا مروان بن معاوية الفزارى ، عن عبد الله بن عبد الرحمن الطائفى ، عن عبد الرحمن ابن خالد بن أبى جَبَل [١] العُدْوانى ، عن أبيه : أنه أبصر رسول الله ﷺ فى مُشرّق ثَقيف وهو قائم على قوس ـ أو : عصا ـ حين أتاهم يبتغى عندهم النصر ، فسمعته يقول : ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ ، حتى ختمها ـ قال : فوعيتها فى الجاهلية وأنا مشرك ، ثم قرأتها فى الإسلام ـ قال : فدعتنى ثقيف فقالوا: ماذا سمعت [٢] من هذا الرجل ؟ فقرأتها عليهم ، فقال من معهم من قريش : نحن أعلم بصاحبنا ، لو كنا نعلم ما يقول حقا لاتبعناه [٣] .

وقال النسائى : حدثنا عمرو بن منصور ، حدثنا أبو نعيم ، عن مسْعَر ، عن محارب بن دِثَار ، عن جابر قال : صلى معاذ المغرب ، فقرأ البقرة والنساء ، فقال النبى ﷺ : « أفتان يا معاذ ؟ ما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق ، والشمس وضحاها ، ونحو هذا ؟ » [٤] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) ﴾ .

يقسم [٥] تعالى بالسماء وما جعل فيها من الكواكب النيرة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ ثم قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ ، ثم فسره بقوله : ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ .

قال قتادة وغيره : إنما سمى النجم طارقا ؛ لأنه إنما يرى بالليل ويختفى بالنهار . ويؤيده ما جاء فى الحديث الصحيح : نهى أن يطرق الرجل أهله طروقا [٦] ، أى : يأتيهم فجأة بالليل . وفى

(١) فى أ : « جهل » .

(٢) فى م : « ما سمعت » .

(٣) المسند (٤/ ٣٣٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٣٦) : « عبد الرحمن ذكره ابن أبى حاتم ولم يخرجه أحد وبقية رجاله ثقات » .

(٤) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٦٤) .

(٥) فى أ : « أقسم » .

(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٢٤٣) من حديث جابر ، رضى الله عنه .

الحديث الآخر المشتمل على الدعاء : « إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن » [١] .

وقوله : ﴿ الثَّاقِبُ ﴾ : قال ابن عباس : المضىء . وقال السدى : يثقب الشياطين إذا أرسل عليها . وقال عكرمة : هو مضىء ومحرق للشيطان .

وقوله : ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ أى : كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات ،كما قال تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ الآية [الرعد: ١١] .

وقوله : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ : تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذى خُلق منه ، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد ؛ لأن من قدر على البَدَاءة فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى ، كما قال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧] .

وقوله : ﴿ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ يعنى : المنى ؛ يخرج دَفقاً من الرجل ومن المرأة ، فيتولد منهما الولد بإذن الله ، عز وجل[٢] ؛ ولهذا قال : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ يعنى : صلب الرجل وترائب المرأة ، وهو صدرها .

قال شبيب بن بشر ، عن عكْرِمة ، عن ابن عباس : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ : صلب الرجل وترائب المرأة ، أصفر رقيق ، لا يكون الولد إلا منهما . وكذا قال سعيد بن جُبَير ، وعكرمة ، وقتادة والسُّدِّى ، وغيرهم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن مِسْعَر : سمعت الحكم ذكر عن ابن عباس: ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ قال: هذه الترائب. ووضع يده على صدره.

وقال الضحاك وعطية ، عن ابن عباس : تَريبة المرأة موضع القلادة . وكذا قال عكرمة ، وسعيد ابن جُبَير . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : الترائب : بين ثدييها .

وعن مجاهد : الترائب ما بين المنكبين إلى الصدر . وعنه أيضا : الترائب أسفل من التراقى .

وقال سفيان الثورى : فوق الثديين . وعن سعيد بن جُبَير : الترائب أربعة أضلاع من هذا الجانب الأسفل .

وعن الضحاك : الترائب بين الثديين والرجلين والعينين .

وقال الليث بن سعد عن مَعْمَر بن أبى حبيبة [٣] المدنى : أنه بلغه فى قول الله عز وجل : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ قال : هو عصارة القلب ، من هناك يكون الولد .

وعن قتادة : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ : من بين صلبه ونحره .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ ، فيه قولان :

أحدهما : على رجع هذا الماء الدافق إلى مقره الذى خرج منه لقادر على ذلك . قاله مجاهد ،

(١) رواه الإمام أحمد فى المسند (٣/ ٤١٩) من حديث عبد الرحمن بن خنبش ، رضى الله عنه .

(٢) فى أ : « بإذن الله تعالى » . (٣) فى أ : « حبة » .

وعكرمة ، وغيرهما .

والقول الثانى : إنه على رجع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق ، أى : إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة لقادر ؛ لأن من قدر على البدء قدر على الإعادة .

وقد ذكر الله ،عز وجل ،هذا الدليل فى القرآن فى غير ما موضع،وهذا القول قال به الضحاك، واختاره ابن جرير ، ولهذا قال : ﴿ **يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ** ﴾ أى : يوم القيامة تبلى فيه السرائر، أى : تظهر وتبدو ، ويبقى السر علانية والمكنون مشهورا .وقد ثبت فى الصحيحين ، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال :« يرفع لكل غادر لواء عند استه [١] ، يقال : هذه غَدْرَةُ فلان بن فلان » [٢].

وقوله : ﴿ **فَمَا لَهُ** ﴾ أى : الإنسان يوم القيامة ﴿ **مِن قُوَّةٍ** ﴾ أى : فى نفسه ﴿ **وَلا نَاصِرٍ** ﴾ أى : من خارج منه ، أى : لا يقدر على أن ينقذ نفسه من عذاب الله ، ولا يستطيع له أحد ذلك .

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧)﴾ .

قال ابن عباس : الرجع : المطر . وعنه : هو السحاب فيه المطر . وعنه : ﴿ **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ** ﴾ : تمطر ثم تمطر.

وقال قتادة : ترجع رزق العباد كل عام ، ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم .

وقال ابن زيد : ترجع نجومها وشمسها وقمرها ، يأتين من هاهنا .

﴿ **وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ** ﴾ : قال ابن عباس : هو انصداعها عن النبات . وكذا قال سعيد بن جُبَير، وعكرمة ،وأبو مالك ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ، وغير واحد .

وقوله : ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ** ﴾ : قال ابن عباس : حق . وكذا قال قتادة .

وقال آخر : حكم عدل .

﴿ **وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ** ﴾ أى : بل هو حق جد .

ثم أخبر عن الكافرين بأنهم يكذبون به ويصدون عن سبيله ، فقال : ﴿ **إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا** ﴾ أى: يمكرون بالناس فى دعوتهم إلى خلاف القرآن .

ثم قال : ﴿ **فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ** ﴾ أى : أنظرهم ولا تستعجل لهم ، ﴿ **أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا** ﴾ أى : قليلا . أى : وترى ماذا أحل بهم من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك ، كما قال : ﴿ **نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ** ﴾ [لقمان: ٢٤] .

آخر تفسير سورة « الطارق » ولله الحمد [٣]

(١) فى أ : « عند رأسه » .

(٢) صحيح البخارى برقم (٣١٨٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٣٥) .

(٣) فى أ : « والله أعلم » .

٨٦ ـ سورة الطارق

(مكية وهى سبع عشرة آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ ٨٦ الطارق

وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٨٦ الطارق

ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ ٨٦ الطارق

إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ ٨٦ الطارق

﴿ سورة الطارق مكية وآيها سبع عشرة ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (والسماء والطارق) الطارق فى الأصل اسم فاعل من طرق طرقاً وطرقاً إذا جاء ليلا قال الماوردى وأصل الطرق الدق ومنه سميت المطرقة وإنما سمى قاصدالليل طارقاً لاحتياجه إلى طرق الباب غالباً ثم اتسع فى كل ما ظهر بالليل كائناً ماكان ثم أشبع فى التوسع حتى أطلق على الصور الخالية البادية بالليل قال [طرق الخيال ولا كليلة مدلج * سدكا بأرجلنا ولم يتبرج] والمراد ههنا الكوكب البادى بالليل إما على أنه اسم جنس أو كوكب معهود وقيل الطارق النجم الذى

٢ يقال له كوكب الصبح وقوله تعالى (وما أدراك ما الطارق) تنويه بشأنه إثر تفخيمه بالإقسام به وتنبيه على أن رفعة قدره بحيث لا ينالها إدراك الخلق فلابد من تلقيها من الخلاق العليم فما الأولى مبتدأ وأدراك خبر والثانية خبر والطارق مبتدأ حسبما بين فى نظائره أى وأى شيء أعلمك ما الطارق وقوله تعالى

٣ (النجم الثاقب) خبر مبتدأ محذوف والجملة استئناف وقع جواباً عن استفهام نشأ مما قبله كأنه قيل ماهو فقيل النجم المضيء فى الغاية كأنه يثقب الظلام أو الأفلاك بضوئه وينفذ فيها والمراد به إما الجنس فإن لكل كوكب ضوءاً ثاقباً لامحالة وإما كوكب معهود قيل هو زحل وقيل هو الثريا وقيل هو الجدى وقيل النجم الثاقب نجم فى السماء السابعة لايسكنها غيره فإذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء هبط فكان معها ثم يرجع إلى مكانه من السماء السابعة وهو زحل فهو طارق حين ينزل وحين يصعد وفى إيراده عند الإقسام به بوصف مشترك بينه وبين غيره ثم الإشارة إلى أن ذلك الوصف غير كنه أمره وأن ذلك مما لاتبلغه أفكار الخلائق ثم تفسيره بالنجم الثاقب من تفخيم شأنه وإجلال محله

٤ مالا يخفى وقوله تعالى (إن كل نفس لما عليها حافظ) جواب للقسم وما بينهما اعتراض جيء به لما

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ — ٨٦ الطارق

خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ — ٨٦ الطارق

يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ — ٨٦ الطارق

إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ — ٨٦ الطارق

يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ — ٨٦ الطارق

ذكر من تأكيد فخامة المقسم به المستتبع لتأكيد مضمون الجملة المقسم عليها وإن نافية ولما بمعنى إلا أى ماكل نفس إلا عليها حافظ مهيمن رقيب وهو الله عز وجل كما فى قوله تعالى وكان الله على كل شىء رقيباً وقيل هو من يحفظ عملها ويحصى عليها ماتكسب من خير وشر كما فى قوله تعالى وإن عليكم لحافظين كراماً الآية وقوله تعالى ويرسل عليكم حفظة وقوله تعالى له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه وقرىء لما مخففه على أن إن مخففة من الثقيلة واسمها الذى هو ضمير الشأن محذوف واللام
٥ هى الفارقة وما مزيدة أى إن الشأن كل نفس لعليها حافظ والفاء فى قوله تعالى (فلينظر الإنسان مم
خلق) للتنبيه على أن مابين من أن كل نفس عليها حافظ يحصى عليها كل مايصدر عنها من قول وفعل مستوجب على الإنسان أن يتفكر فى مبدأ فطرته حق التفكر حتى يتضح له أن من قدر على إنشائه من مواد لم تشم رائحة الحياة قط فهو قادر على إعادته بل أقدر على قياس العقل فيعمل ليوم الإعادة
٦ والجزاء ماينفعه يومئذ ويجديه ولا يملى على حافظه مايرديه وقوله تعالى (خلق من ماء دافق) استئناف
وقع جواباً عن استفهام مقدر كأنه قيل مم خلق فقيل خلق من ماء ذى دفق وهو صب فيه دفع وسيلان
٧ بسرعة والمراد به الممتزج من الماءين فى الرحم كما ينبىء عنه قوله تعالى (يخرج من بين الصلب والترائب)
أى صلب الرجل وترائب المرأة وهى عظام صدرها قالوا إن النطفة تتولد من فضل الهضم الرابع وتنفصل عن جميع الأعضاء حتى تستعد لأن يتولد منها مثل تلك الأعضاء ومقرها عروق ملتف بعضها بالبعض عند البيضتين فالدماغ أعظم الأعضاء معونة فى توليدها ولذلك تشبهه ويورث الإفراط فى الجماع الضعف فيه وله خليفة هى النخاع وهو فى الصلب وشعب كثيرة نازلة إلى الترائب وهما أقرب إلى أوعية المنى فلذلك خصا بالذكر وقرىء الصلب بفتحتين والصلب بضمتين وفيه لغة رابعة هى صالب
٨ (إنه) الضمير للخالق تعالى فإن قوله خلق يدل عليه أى إن ذلك الذى خلقه ابتداء مما ذكر (على
٩ رجعه) أى على إعادته بعد موته (لقادر) لبين القدرة (يوم تبلى السرائر) أى يتعرف ويتصفح ما أسر
فى القلوب من العقائد والنيات وغيرها وما أخفى من الأعمال ويميز بين ما طاب منها وما خبث وهو

فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ ٨٦ الطارق

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ ٨٦ الطارق

وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ ٨٦ الطارق

إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ ٨٦ الطارق

وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ ٨٦ الطارق

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ ٨٦ الطارق

وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ ٨٦ الطارق

فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ ٨٦ الطارق

١١،١٠ ظرف لرجعه (فما له) أى للإنسان (من قوة) فى نفسه يمتنع بها (ولا ناصر) ينتصر به (والسماء
ذات الرجع) أى المطر سمى رجعاً لما أن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض
ثم يرجعه إلى الأرض أو أرادوا بذلك التفاؤل ليرجع ولذلك سموه أوبا أو لأن الله تعالى يرجعه
١٢ (والأرض ذات الصدع) هو ماتتصدع عنه الأرض من النبات أو مصدر من المبنى للمفعول وهو
تشققها بالنبات لا بالعيون كما قيل فإن وصف السماء والأرض عند الإقسام بهما على حقية القرآن
الناطق بالبعث بما ذكر من الوصفين للإيماء إلى أنهما فى أنفسهما من شواهده وهو السر فى التعبير
بالصدع عنه وعن المطر بالرجع وذلك فى تشقق الأرض بالنبات المحاكى للنشور حسبما ذكر فى مواقع
١٣ من التنزيل لافى تشققها بالعيون (إنه) أى القرآن الذى من جملته ماتلى من الآيات الناطقة بمبدأ
* حال الإنسان ومعاده (لقول فصل) أى فاصل بين الحق والباطل مبالغ فى ذلك كأنه نفس الفصل
١٤ (وما هو بالهزل) ليس فى شىء منه شائبة هزل بل كله جد محض لاهوادة فيه فمن حقه أن يهتدى به
١٥ الغواة وتخضع له رقاب العتاة (إنهم) أى أهل مكة (يكيدون) فى إبطال أمره وإطفاء نوره (كيداً)
١٦ حسبما نفى به قدرتهم (وأكيد كيداً) أى أقابلهم بكيد متين لايمكن رده حيث أستدرجهم من حيث
١٧ لايعلمون (فمهل الكافرين) أى لاتشتغل بالانتقام منهم ولاتدع عليهم بالهلاك أو لاتستعجل به والفاء
لترتيب مابعدها على ماقبلها فإن الإخبار بتوليه تعالى لكيدهم بالذات مما يوجب إمهالهم وترك التصدى
* لمكايدتهم قطعاً وقوله تعالى (أمهلهم) بدل من مهل وقوله تعالى (رويداً) إما مصدر مؤكد لمعنى العامل
أو نعت لمصدره المحذوف أى أمهلهم إمهالا رويداً أى قريباً كما قاله ابن عباس رضى الله عنهما أو قليلا



مكية بلا خلاف وهي سبع عشرة آية على المشهور وفي التيسير ست عشرة، ولما ذكر سبحانه فيما قبلها تكذيب الكفار للقرآن نبه تعالى شأنه هنا على حقارة الإنسان ثم استطرد جل وعلا منه إلى وصف القرآن ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بإمهال أولئك المكذبين فقال عز قائلاً:

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ
﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن
قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ
كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾

﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * والسَّمَاءِ**﴾ هي المعروفة على ما عليه الجمهور، وقيل المطر هنا وهو أحد استعمالاتها ومنه قوله:

إذا نزل السماء بأرض قوم ... رعيناه وإن كانوا غضابا

ولا يخفى حاله و﴿**الطَّارِقِ**﴾ وهو في الأصل اسم فاعل من الطرق بمعنى الضرب بوقع أشده يسمع لها صوت ومنه المطرقة والطريق لأن السابلة تطرقها، ثم صار في عرف اللغة اسماً لسالك الطريق لتصور أنه يطرقها بقدمه واشتهر فيه حتى صار حقيقة ثم اختص بالآتي ليلاً لأنه في الأكثر يجد الأبواب مغلقة فيطرقها، ثم اتسع في كل ما يظهر بالليل كائناً ما كان حتى الصور الخيالية البادية فيه والعرب تصفها بالطروق كما في قوله:

طرق الخيال ولا كليلة مدلج ... سدكا[1] بأرحلنا ولم يتعرج

والمراد به ها هنا عند الجمهور الكوكب البادي بالليل إما على أنه اسم جنس أو كوكب معهود كما ستعلمه إن شاء الله تعالى. وقوله تعالى ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ ما الطَّارِقُ**﴾ تنويه بشأنه إثر تفخيمه بالإقسام وتنبيه على أن

---

(١) سدكا بفتح فكسر أي مونعاً اهـ منه.

رفعة قدره بحيث لا ينالها إدراك الخلق فلا بد من تلقيها من الخلاق العليم ف ﴿ما﴾ الأولى مبتدأ و ﴿أدراك﴾ خبره و ﴿ما﴾ الثانية خبر و ﴿الطارق﴾ مبتدأ على ما اختاره بعض المحققين أي أي شيء أعلمك ما الطارق. وقوله سبحانه ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة استئناف وقع جواباً عن استفهام نشأ عما قبل كأنه قيل: ما هو؟ فقيل: هو النجم الخ و ﴿الثاقب﴾ في الأصل الخارق ثم صار بمعنى المضيء لتصور أنه يثقب الظلام، وقد يخص بالنجوم والشهب لذلك. وتصور أنها ينفذ ضوءها في الأفلاك ونحوها. وقال الفراء ﴿الثاقب﴾ المرتفع، يقال: ثقب الطائر أي ارتفع وعلا، والمراد بالنجم الثاقب الجنس عند الحسن فإن لكل كوكب ضوءاً ثاقباً لا محالة وكذا كل كوكب مرتفع ولا يضرب التفاوت في ذلك، وذهب غير واحد إلى أن المراد به معهود، فعن ابن عباس أنه الجدي. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد أنه الثريا وهو الذي تطلق العرب عليه اسم النجم، وروي عنه أيضاً أنه زحل وهو أبعد السيارات وأرفعها وما يثقبه ضوؤه من الأفلاك أكثر فيما يزعم المنجمون المتقدمون، وإنما قلنا أبعد السيارات لأن الجدي والثريا عندهم أبعد منه بكثير وكذا عند المحدثين وعن الفراء أنه القمر لأنه آية الليل وأشد الكواكب ضوءاً فيه وهو زمان سلطانه، وأنت تعلم أن إطلاق النجم عليه ولو موصوفاً غير شائع وقيل هو النجم الذي يقال له كوكب الصبح. وعن علي كرم الله تعالى وجهه أنه نجم في السماء السابعة لا يسكنها فميّزه فإذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء هبط فكان معها ثم يرجع إلى مكانه من السماء السابعة فهو طارق حين ينزل وطارق حين يصعد، ولا يخفى أن المعروف أن الذي يسكن السماء السابعة أعني الفلك السابع وحده هو زحل فيكون ذلك قولاً بأن النجم الثاقب هو لكن لا يعرف له نزول ولا صعود بالمعنى المتبادر وأيضاً لا يعقل له نزول إلى حيث تكون النجوم أعني الثوابت لأن المعروف عندهم أنها في الفلك الثامن ويجوز عقلاً أن يكون بعضها في أفلاك فوق ذلك بل نص المحدثون لما قام عندهم على تفاوتها في الارتفاع ولم يشكوا في أن كثيراً منها أبعد من زحل بعداً عظيماً وإذا اعتبرت الظواهر وقلنا بأنها في السماء الدنيا وإن تفاوتت في الارتفاع فذلك أيضاً مما يأباه أن النجوم قد تأخذ أمكنتها من السماء وليس معها زحل. وبالجملة ما يعكر على هذا الخبر كثير وكونه كرم الله تعلى وجهه أراد كوكباً آخر هذا شأنه لا يخفى حاله والذي يقتضيه الإنصاف وترك التعصب أن الخبر مكذوب على الأمير رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه، وجوز على إرادة الجنس أن يراد به جنس الشهب التي يرجم بها وليس بذاك وما روي أن أبا طالب كان عند رسول الله ﷺ فانحط نجم فامتلأ ماء ثم نور ففزع أبو طالب فقال: أي شيء هذا؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «هذا نجم رمي به وهو آية من آيات الله تعالى» فعجب أبو طالب فنزلت لا يقتضي ذلك على ما لا يخفى. وزعم ابن عطية أن المراد بـ ﴿الطارق﴾ جميع ما يطرق من الأمور والمخلوقات فيعم النجم الثاقب وغيره، ويكون معنى ﴿وما أدراك ما الطارق﴾ حق الطارق بأن تكون أل في ﴿ما الطارق﴾ مثلها في أنت الرجل وما أدري ما الطارق على هذا الرجل حتى ركب هذا الطريق الوعر في التفسير وفي إيراد ذلك عند الإقسام به بوصف مشترك بينه وبين غيره ثم الإشارة إلى أن ذلك الوصف غير كاشف عن كنه أمره وأن ذلك مما لا يبلغه أفكار الخلائق، ثم تفسيره بالنجم الثاقب من تفخيم شأنه وإجلال محله ما لا يخفى على ذي نظر ثاقب، ولإرادة ذلك لم يقل ابتداء و ﴿النجم الثاقب﴾ مع أنه أخصر وأظهر ولله عز وجل أن يفخم شأن ما شاء من خلقه لما شاء ولا دلالة فيه ها هنا على شيء مما يزعمه المنجمون في أمر النجوم زحل وغيره من التأثير في سعادة أو شقاوة أو نحوهما وجواب القسم قوله تعالى.

﴿إِنْ كلُّ نَفْسٍ لَـمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ وما بينهما اعتراض جيء به لما ذكر من تأكيد فخامة المقسم به المستتبع لتأكيد مضمون الجملة المقسم عليها، وقيل جوابه قوله سبحانه ﴿إنه على رجعة لقادر﴾ وما في البين اعتراض وهو كما ترى و ﴿إن﴾ نافية و ﴿لما﴾ بمعنى إلاّ ومجيئها كذلك لغة مشهورة كما نقل أبو حيان عن الأخفش في هذيل وغيرهم يقولون: أقسمت عليك أو سألتك لما فعلت كذا يريدون إلا وفعلت، وبهذا رد على الجوهري المنكر لذلك. وقال الرضي: لا تجيء إلاّ بعد نفي ظاهر أو مقدر ولا تكون إلا في المفرغ أي بخلاف. إلاّ و ﴿كل﴾ لتأكيد العموم لتحقق أصله من وقوع النكرة في سياق النفي وهو مبتدأ والخبر على المشهور ﴿حافظ﴾ و ﴿عليها﴾ متعلق به وعلى ما سمعت عن الرضي محذوف أي ما كل نفس كائنة في حال من الأحوال إلا في حال أن يكون عليها حافظ أي مهيمن ورقيب وهو الله عز وجل كما في قوله تعالى ﴿وكان الله على كل شيء رقيباً﴾ [الأحزاب: ٥٢].

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل — خلوت ولكن قل عليَّ رقيب

وقيل: هو من يحفظ عملها من الملائكة عليهم السلام ويحصي عليها ما تكسب من خير أو شر كما في قوله تعالى ﴿وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين﴾ [الانفطار: ١٠، ١١] الآية. وروي ذلك عن ابن سيرين وقتادة وغيرهما وخصصوا النفس بالمكلفة، وقيل: هو ومن وكل على حفظها والذب عنها من الملائكة كما في قوله تعالى ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ [الرعد: ١١] وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «وكل بالمؤمن مائة وستون ملكاً يذبّون عنه كما يذب عن قصعة العسل الذباب، ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين». وقيل: هو العقل يرشد المرء إلى مصالحه ويكفه عن مضاره. وقرأ الأكثر ﴿لما﴾ بالتخفيف، فعند الكوفيين ﴿إن﴾ نافية كما سبق واللام بمعنى إلاّ، وما زائدة. وصرحوا هنا بأن ﴿كل﴾ و ﴿حافظ﴾ مبتدأ وخبر فلا تغفل. وعند البصريين إن مخففة من الثقيلة و ﴿كل﴾ مبتدأ و ﴿ما﴾ زائدة واللام هي الداخلة للفرق بين إن النافية وإن المخففة و ﴿حافظ﴾ خبر المبتدأ و ﴿عليها﴾ متعلق به وقدر لأن ضمير الشأن وتعقب بأنه لا حاجة إليه لأنه في غير المفتوحة ضعيف لعدم العمل مع أنه مخل بإدخال اللام الفارقة لأنه إذا كان الخبر جملة فالأولى إدخال اللام على الجزء الأول كما صرح به في التسهيل، وإدخالها على الجزء الثاني كما صرح به بعض الأفاضل في حواشيه عليه، ولعل من قال أي إن الشأن كل نفس لعليها حافظ لم يرد تقدير الضمير وإنما أراد بيان حاصل المعنى. وحكى هارون أنه قرىء «إنّ» بالتشديد «وَكُلَّ» بالنصب و «لما» بالتخفيف فاللام هي الداخلة في خبر «إن» و «ما» زائدة وعلى جميع القراءات أمر الجوابية ظاهر لوجود ما يتلقى به القسم وتلقيه بالمشددة مشهور وبالمخففة ﴿تالله إن كدت لتردين﴾ [الصافات: ٥٦] وبالنافية ﴿ولئن زالتا أن أمسكهما﴾ [فاطر: ٤١] وقوله تعالى ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ متفرع على ما قبله وليست الفاء بفصيحة خلافاً للطيبي إذ لا يحتاج إلى حذف في استقامة الكلام إما على تقدير أن يكون الحافظ هو الله عز وجل أو الملك الذي وكله تعالى شأنه للحفظ على الوجه الذي سمعت فلأنه لما أثبت سبحانه أن عليه رقيباً منه تعالى حثه على النظر المعرف لذلك مع أوصافه، كأنه قيل فليعرف المهيمن عليه بنصبه الرقيب أو بنفسه، وليعلم رجوعه إليه تعالى، وليفعل ما يسر به حال الرجوع. وعبر عن الأول بقوله تعالى ﴿فلينظر﴾ ليبين طريقه المعرفة فهو بسط فيه إيجاز وأدمج فيه الأخيران وإما على تقدير أن يكون المراد به العقل فلأنه لما أثبت سبحانه أن له عقلاً يرشد إلى المصالح ويكف عن المضار حثه على استعماله فيما ينفعه وعدم تعطليه وإلغائه كأنه قيل: فلينظر بعقله وليتفكر به في مبدأ خلقه حتى يتضح له قدرة واهبه وأنه إذا قدر

على إنشائه من مواد لم تشم رائحة الحياة قط فهو سبحانه على إعادته أقدر وأقدر فيعمل بما يسر به حين الإعادة وقد يقرر التفريع على جميع الأوجه بنحو واحد فتأمل و ﴿مم خلق﴾ استفهام ومن متعلقة بخلق والجملة في موضع نصب بينظر وهي معلقة بالاستفهام.

وقوله تعالى ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾ استئناف وقع جواباً عن استفهام مقدر كأنه قيل: مم خلق؟ فقيل ﴿خلق من ماء﴾ الخ وظاهر كلام بعض الأجلّة أنه جواب الاستفهام المذكور مع تعلق الجار بينظر. وفيه مسامحة، وكأن المراد أنه على صورة الجواب وجعله جواباً له حقيقة على أنه مقطوع عن ينظر ليس بشيء عند من له نظر. والدفق صب فيه دفع وسيلان بسرعة، وأريد بالماء الدافق المني، و ﴿دافق﴾ قيل بمعنى مدفوق على تأويل اسم الفاعل بالمفعول. وقد قرأ بذلك زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما. وقال الخليل وسيبويه هو على النسب كلابن وتامر أي ذي دفق وهو صادق على الفاعل والمفعول. وقيل: هو اسم فاعل وإسناده إلى الماء مجاز وأسند إليه ما لصاحبه مبالغة أو هو استعارة مكنية وتخييلية كما ذهب إليه السكاكي أو مصرحة بجعله دافقاً لأنه لتتابع قطراته كأنه يدفق أي يدفع بعضه بعضاً. وقد فسر ابن عطية الدفق بالدفع، فقال: الدفق دفع الماء بعضه ببعض يقال: تدفق الوادي والسيل إذا جاء يركب بعضه بعضاً ويصح أن يكون الماء دافقاً لأن بعضه يدفع بعضاً فمنه دافق ومنه مدفوق، وتعقبه أبو حيان بأن الدفق بمعنى الدفع غير محفوظ في اللغة بل المحفوظ أنه الصب، ونقل عن الليث أن دفق بمعنى انصبّ بمرة فدافق بمعنى منصب فلا حاجة إلى التأويل، وتعقب بأنه مما تفرد به الليث كما في القاموس وغيره وقيل: من ماء مع أن الإنسان لا يخلق إلاّ من ماءين ماء الرجل وماء المرأة، ولذا كان خلق عيسى عليه السلام خارقاً للعادة لأن المراد به الممتزج من الماءين في الرحم وبالامتزاج صارا ماءً واحداً، ووصفه بالدفق قيل باعتبار أحد جزأيه وهو مني الرجل، وقيل باعتبار كليهما ومني المرأة دافق أيضاً إلى الرحم ويشير إلى إرادة الممتزج على ما قيل. قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ﴾ أي من بين أجزاء صلب كل رجل أي ظهره ﴿والتَّرَائِبِ﴾ أي ومن بين ترائب كل امرأة أي عظام صدرها جمع تريبة، وفسرت أيضاً بموضع القلادة من الصدر. وروي عن ابن عباس وهو لكل امرأة واحد إلا أنه يجمع كما في قوله امرىء القيس:

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ... ترائبها مصقولة كالسجنجل

باعتبار ما حوله على ما في البحر وجاء في المفرد تريب كما في قول المثقب العبدي:

ومن ذهب يبين على تريب ... كلون العاج ليس بذي غضون

وحمل الآية على ما ذكر مروي عن سفيان وقتادة إلاّ أنهما قالا: أي يخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة، وظاهره كالآية أن أحد الطرفين للبينية الصلب والآخر الترائب وهو غير ما قلناه، وعليه قيل: هو كقولك يخرج من بين زيد وعمرو خير كثير على معنى أنهما سببان فيه، وقيل إن ذلك باعتبار أن الرجل والمرأة يصيران كالشيء الواحد فكان الصلب والترائب لشخص واحد فلا تغفل. ثم إن ما تقدم مبني إما على أن الترائب مخصوصة بالمرأة كما هو ظاهر كلام غير واحد، وإما على حمل تعريفها على العهد وقال الحسن وروي عن قتادة أيضاً: أن المعنى يخرج من بين صلب كل واحد من الرجل والمرأة وترائب كل منهما، ولم يفسر الترائب فقيل عظام الصدر، وقيل ما بين الثديين، وقيل ما بين المنكبين والصدر، وقيل التراقي، وقيل أربع أضلاع من يمنة الصدر وأربع من يسرته. وعن ابن جبير الأضلاع التي هي أسفل الصلب وحكى مكي عن

ابن عباس أنها أطراف المرء رجلاه ويداه وعيناه والأشهر أنها عظام الصدر وموضع القلادة منه، وطعن في ذلك على ما قال الإمام بعض الملاحدة خذلهم الله تعالى بأن المني إنما يتولد من فضلة الهضم الرابع وينفصل من جميع أجزاء البدن فيأخذ من كل عضو طبيعة وخاصية مستعداً لأن يتولد منه تلك الأعضاء وإن كان المراد أن معظم أجزاء المني تتولد في ذينك الموضعين فهو ضعيف لأن معظمه إنما يتولد في الدماغ ألا ترى أنه في صورته يشبه الدماغ والمكثر منه يظهر الضعف أولاً في دماغه وعينيه وإن كان المراد أن مستقره هناك فهو ضعيف أيضاً لأن مستقره عروق يلتف بعضها بالبعض عند البيضتين وتسمى أوعية المني وإن كان المراد أن مخرجه هناك فهو أيضاً كذلك لأن الحس يدل على خلافه. وأجاب رحمه الله تعالى بأن لا شك أن أعظم الأعضاء معونة في توليد المني الدماغ وخليفته النخاع في الصلب وشعب نازلة إلى مقدم البدن وهي التربية فلذا خصّا بالذكر على أن كلامهم في أمر المني وتولده محض الوهم والظن الضعيف وكلام الله تعالى المجيد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فهو المقبول والمعول عليه اهـ. وفي الكشف أقول النخاع بين الصلب والترائب ولا يحتاج إلى تخصيص التريبة بالنساء فقد يمنع الشعب النازلة على أن تلك الشعب إن كانت فهي أعصاب لا ذات تجاويف، والوجه والله تعالى أعلم أن النخاع والقوى الدماغية والقلبية والكبدية كلها تتعاون في إبراز ذلك الفضل على ما هو عليه قابلاً لأن يصير مبدأ الشخص على ما بيّن في موضعه. وقوله سبحانه ﴿**من بين الصلب والترائب**﴾ عبارة مختصرة جامعة لتأثير الأعضاء الثلاثة، فالترائب يشمل القلب والكبد وشمولها للقلب أظهر، والصلب النخاع وبتوسطه الدماغ ولعله لا يحتاج إلى التنبيه على مكان الكبد لظهوره ذلك لأنه دم نضيج وإنما احتيج إلى ما خفي وهو أمر الدماغ والقلب في تكون ذلك الماء فنبه على مكانهما وقيل: ابتداء الخروج منه كما أن انتهاءه بالإحليل انتهى. وقيل: لو جعل ما بين الصلب والترائب كناية عن البدن كله لم يبعد وكان تخصيصهما بالذكر لما أنهما كالوعاء للقلب الذي هو المضغة العظمى فيه وأمر هذه الكناية على ما حكى مكي عن ابن عباس في الترائب أظهر. وزعم بعضهم جواز كون الصلب والترائب للرجل أي يخرج من بين صلب كل رجل وترائبه فالمراد بالماء الدافق ماء الرجل فقط، وجعل الكلام إما على التغليب أو على أنه لا ماء للمرأة أصلاً فضلاً عن الماء الدافق كما قيل به ولا يخفى ما فيه، والقول بأن المرأة لا ماء لها تكذبه الشريعة وغيرها. وقرأ ابن أبي عبلة وابن مقسم «يُخْرَج» مبنياً للمفعول وهما أهل مكة وعيسى «الصُلُبُ» بضم الصاد واللام واليماني بفتحهما وروي على اللغتين قول العجاج:

ريا العظام فخمة المخدم ... في صلب مثل العنان المؤدم

وفيه لغة رابعة وهي صالب كما في قول العباس:

تنقل من صالب إلى رحم

وهي قليلة الاستعمال واستشهد بعض الأجلة بقوله تعالى ﴿**خلق من ماء دافق**﴾ على أن الإنسان هو الهيكل المخصوص كما ذهب إليه جمهور المتكلمين النافين للنفس الناطقة الإنسانية المجردة التي ليست داخل البدن ولاخارجه. وقال إنه شاهد قوي على ذلك وتأويله على حذف المضاف أي خلق بدن الإنسان لا يسمع ما لم يقم برهان على امتناع ظاهره انتهى. وأنت تعلم أن القائلين بالنفس الناطقة المجردة قد أقاموا فيما عندهم براهين على إثباتها نعم إن فيها أبحاثاً للنافين وتحقيق ذلك بما لا مزيد عليه في كتاب الروح للعلامة ابن القيم عليه الرحمة ﴿**إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ**﴾ الضمير الأول للخالق تعالى شأنه وكما فخم أولاً بترك الفاعل في قوله تعالى ﴿**مم خلق خلق**﴾

إذ لا يذهب إلى خالق سواه عز وجل فخم بالإضمار ثانياً، والضمير الثاني للإنسان أي إن ذلك الذي خلقه ابتداءً مما ذكر على إعادته بعد موته لبين القدرة وهذا كما في قوله:

لئن كان تهدي برد أنيابها العلى ... لأفقر مني إنني لفقير

فإنه أراد لبين الفقر وإلاّ لم يصح إيراده في مقابلة لأفقر مني والتأكيد البالغ لفظاً لما قام عليه البرهان الواضح معنى، ولذا فسر ﴿قادر﴾ هنا يبين القدرة كما في الكشاف واعتبر فيه أيضاً الاختصاص، فقال: أي على إعادته خصوصاً وكأن ذلك لأن الغرض المسوق له الكلام ذلك فكأن ما سواه مطرح بالنسبة إليه وحينئذ يراد ما ذكر جعل الجار من صلة لقادر أو مدلولاً على موصوله به على المذهبين، وفصل الجملة عما سبق لكونه جواب الاستفهام دونها. وقال مجاهد وعكرمة: الضمير الثاني للماء أي إنه تعالى على رد الماء في الإحليل أو في الصلب لقادر وليس بشيء ومثله كون المعنى على تقدير كونه للإنسان أنه جل وعلا رده من الكبر إلى الشباب لقادر كما روي عن الضحاك وما ذكرناه أولاً مروي عن ابن عباس ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أي يتعرف ويتصفح ما أسر في القلوب من العقائد والنيات وغيرها ومما أخفى من الأعمال ويميز بين ما طاب منها وما خبث، وأصل الابتلاء الاختبار وإطلاقه على ما ذكر إطلاق على اللازم وحمل السرائر على العموم هو الظاهر. وأخرج ابن المنذر عن عطاء ويحيى بن أبي كثير أنها الصوم والصلاة والغسل من الجنابة. وأخرج البيهقي في الشعب عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ضمن الله تعالى خلقه أربعاً الصلاة والزكاة وصوم رمضان والغسل من الجنابة وهن السرائر التي قال الله تعالى ﴿يوم تبلى السرائر﴾» وفي البحر ضم التوحيد إليها ولعل المراد بيان عظيمها على سبيل المبالغة لا حقيقة الحصر وسمع الحسن من ينشد قول الأحوص:

سيبقى لها في مضمر القلب والحشا ... سريرة ود يوم تبلى السرائر

فقال: ما أغفله عما في ﴿السماء والطارق﴾ وكأنه حمل البقاء فيه على عدم التعرف أصلاً فليفهم ويوم عند جمع من الحذاق ظرف لمحذوف يدل عليه أي يرجعه يوم الخ. وقال الزمخشري وجماعة: ظرف لرجعه واعترض بأن فيه فصلاً بين المصدر ومعموله بأجنبي وأجيب تارة بأنه جائز لتوسعهم في الظروف وأخرى بأن الفاصل هنا غير أجنبي لأنه إما تفسير أو عامل على المذهبين وقال عصام الدين: إن الفصل بهذا الأجنبي كلا فصل لأن المعمول في نية التقديم عليه وإنما أخّر لرعاية الفاصلة وفيه ما لا يخفى. وقيل: ظرف لناصر بعد وتعقبه أبو حيان بأنه فاسد لأن ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها وكذلك ما النافية على المشهور المنصور وقيل معمول لأذكر محذوفاً وهو كما ترى، ويتعين هو أو ما قبله على رأي مجاهد وعكرمة ورأى الضحاك السابقين آنفاً وجوز الطبرسي تعلقه بقادر ولم يعلقه جمهور المعربين به لأنه يوهم اختصاص قدرته عز وجل بيوم دون يوم كما قال غير واحد. وقال ابن عطية: فروا من أن يكون العامل ﴿لقادر﴾ للزوم تخصيص القدرة في ذلك اليوم وحده وإذا تؤمل المعنى وما يقتضيه فصيح كلام العرب جاز أن يكون العامل وذلك أنه تعالى قال ﴿على رجعه لقادر﴾ على الإطلاق أو وآخراً وفي كل وقت ثم ذكر سبحانه من الأوقات الوقت الأعظم على الكفار لأنه وقت الجزاء والوصول إلى العذاب ليجتمع الناس على حذره والخوف منه انتهى وهو على ما فيه لا يدفع الإيهام ﴿فما لَهُ﴾ أي الإنسان ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ في نفسه يمتنع بها ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ ينتصر به ﴿والسَّمَاءِ﴾ وهي المظلة في قول الجمهور ﴿ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ أي المطر في قولهم أيضاً كما في قوله الخنساء:

يوم الوداع ترى دموعاً جاريه ... كالرجع في[1] المدجنة الساريه

---

(١) كذا في خط المؤلف وليحرر الوزن اهـ.

وأصله مصدر رجع المتعدي واللازم أيضاً في قول ومصدره الخاص به الرجوع سموا به المطر كما سموه بالأب مصدر آبَ ومنه قوله:

ربـاء شـمـاء لا يـأوي لـقـلـتـهـا إلا الـسـحـاب وإلا الأوب والـسـبـل

ليرجع أو لأن السحاب يحمله من بحار الأرض ثم يرجعه إلى الأرض، وبنى هذا غير واحد على الزعم وفيه بحث وعن أو المراد به فيه النحل لأن الله تعالى يرجعه حيناً فحيناً، وقال الحسن: لأنه يرجع بالرزق كل عام أو أرادوا بذلك التفاؤل. ابن عباس ومجاهد تفسير السماء بالسحاب والرجع بالمطر وقال ابن زيد ﴿**السماء**﴾ هي المعروفة و ﴿**الرجع**﴾ رجوع الشمس والقمر والكواكب من حال إلى حال ومن منزلة إلى منزلة فيها وقبل رجوعها نفسها فإنها ترجع في كل دورة إلى الموضع الذي تتحرك منه وهذا مبني على أن السماء والفلك واحد فهي تتحرك ويصير أوجها حضيضاً وحضيضها أوجاً وقد سمعت فيما تقدم أن ظاهر كلام السلف أن السماء غير الفلك وأنها لا تدور ولا تتحرك والذي ذكر رأي الفلاسفة ومن تابعهم. وقيل ﴿**الرجع**﴾ الملائكة عليهم السلام سموا بذلك لرجوعهم بأعمال العباد ﴿**وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ**﴾ هو ما تتصدع عنه الأرض من النبات وأصله الشق سُمِّي به النبات مجازاً، أو هو مصدر من المبني للمفعول فالمراد تشققها بالنبات وروي ذلك عن عطية وابن زيد، وقيل: تشققها بالعيون، وتعقب بأن وصف السماء والأرض عند الإقسام بهما على حقيقة القرآن الناطق بالبعث بما ذكر من الوصفين للإيماء إلى أنهما في أنفسهما من شواهده، وهو السر في التعبير عن المطر بالرجع وذلك في تشقق الأرض بالنبات المحاكي للنشور حسبما ذكر في مواضع من التنزيل لا في تشققها بالعيون، ويعلم منه ما في تفسير الرجع بغير المطر وكذا ما في قوله مجاهد ﴿**الصدع**﴾ ما في الأرض من شقاق وأودية وخنادق وتشقق بحرث وغيره وما روي عنه أيضاً ﴿**الصدع**﴾ الطرق تصدعها المشاة وقيل ذات الأموات لانصداعها عنهم للنشور ﴿**إِنَّهُ**﴾ أي القرآن الذي من جملته هذه الآيات الناطقة بمبدأ حال الإنسان ومعاده وهو أولى من جعل الضمير راجعاً لما تقدم أي ما أخبرتكم به من قدرتي على حيائكم لأن القرآن يتناول ذلك تناولاً أولياً. وقوله تعالى ﴿**لَقَوْلٌ فَصْلٌ**﴾ أنسب به والمراد لقول فاصل بين الحق والباطل قد بلغ الغاية في ذلك حتى كأنه نفس الفصل وقيل مقابلة الفصل بالهزل بعد يستدعي أن يفسر بالقطع أي قول مقطوع به والأول أحسن ﴿**وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ**﴾ أي ليس في شيء منه شائبة هزل بل كله جد محض فمن حقه أن يهتدي به الغواة وتخضع له رقاب العتاة. وفي حديث أخرجه الترمذي والدارمي وابن الأنباري عن الحارث الأعور عن علي كرم الله تعالى وجهه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون فتنة» قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذي لا تزيغ فيه الأهواء ولا تشبع منه العلماء ولا تلتبس به الألسن ولا يخلق عن الرد، ولا تنقضي عجائبه هو الذي لم تلته الجن لما سمعته عن أن قالوا ﴿إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد﴾ [الجن: ١، ٢] من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر ومن هدى به هدي إلى صراط مستقيم» وفي هذا من الرد على الذين نبذوه وراء ظهورهم ما فيه.

﴿**إِنَّهُمْ**﴾ أي كفار مكة ﴿**يَكِيدُونَ**﴾ يعملون المكايد في إبطال أمره وإطفاء نوره أو في إبطال أمر الله

تعالى وإطفاء نور الحق والأول أتم انتظاماً وهذا قيل أملأ فائدة ﴿كَيْداً﴾ أي عظيماً حسبا تفي به قدرتهم، والجملة تحتمل أن تكون استئنافاً بيانياً كأنه قيل: إذا كان حال القرآن ما ذكر فما حال هؤلاء الذين يقولون فيه ما يقولون فقيل ﴿إنهم يكيدون كيداً﴾ ﴿وَأَكِيدُ كَيْداً﴾ أي أقابلهم بكيد متين لا يمكن رده حيث استدرجهم من حيث لا يعلمون أو أقابلهم بكيدي في إعلاء أمره وإكثار نوره من حيث لا يحتسبون والفصل لهذا، وقيل لئلا يتوهم عطفها على جواب القسم مع أنها غير مقسم عليها ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ﴾ فلا تشتغل بالانتقام منهم ولا تدع عليهم بالهلاك أو تأن وانتظر الانتقام منهم ولا تستعجل، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن الإخبار بتوليه تعالى لكيدهم بالذات وعدم إهمالهم مما يوجب إمهالهم وترك التصدي لمكايدتهم قطعاً ووضع الظاهر موضع الضمير لذمهم بأبي الخبائث وأمها، وقيل للإشعار بعلة ما تضمنه الكلام من الوعيد وقوله تعالى ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾ بدل من مهل على ما صرح به في الإرشاد وقوله سبحانه ﴿رُوَيْداً﴾ إما مصدر مؤكد لمعنى العامل أو نعت لمصدره المحذوف أي أمهلهم إمهالاً رويداً أي قريباً كما أخرج ابن المنذر وابن جرير عن ابن عباس أو قليلاً كما روي عن قتادة. وأخرج ابن المنذر عن السدّي أنه قال أي أمهلهم حتى آمر بالقتال ولعله المراد بالإمهال القريب أو القليل. واختار بعضهم أن يكون المراد إلى يوم القيامة لأن ما وقع بعد الأمر بالقتال كالذي وقع يوم بدر وفي سائر الغزوات لم يعم الكل وما يكون يوم القيامة يعمهم والتقريب باعتبار أن كل آت قريب وعلى هذا النحو التقليل على أن من مات فقد قامت قيامته، والظاهر ما قال السدي وقد عراهم بعد الأمر بالقتال ما عراهم وعدم العموم الحقيقي لا يضر وهو في الأصل على ما قال أبو عبيدة تصغير رود بالضم وأنشد:

كأنها ثمل تمشي على رود

أي على مهل وقال أبو حيان وجماعة تصغير إرواد مصدر رود يرود بالترخيم وهو تصغير تحقير وتقليل وله في الاستعمال وجهان آخران كونه اسم فعل نحو ريداً زيد أي أمهله وكونه حالاً نحو سار القوم رويداً أي متمهلين غير مستعجلين، ولم يذكر أحد احتمال كونه اسم فعل هنا وصرح ابن الشيخ بعدم جريانه وعلل ذلك بأن الأوامر بمعنى فكأنه قيل: أمهل الكافرين أمهلهم أمهلهم وفائدة التأكيد تحصل بالثاني فيلغو الثالث وفي التعليل نظر فقد يسلك في التأكيد بألفاظ متحدة لفظاً ومعنى نحو ذلك ففي الحديث: «أيما امرأة أنكحت نفسها بدون ولي فنكحها باطل باطل باطل» ولا فرق بين الجمل والمفردات نعم هو خلاف الظاهر جداً. وجوز رحمه الله كونه حالاً أي أمهلهم غير مستعجل، والظاهر أنه حال مؤكدة كما في قوله تعالى ﴿لا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ [البقرة: ٦٠] فلا تغفل وهو أيضاً بعيد وظاهر كلام أبي حيان وغيره أن الأمر الثاني توكيد للأول قالوا: والمخالفة بين اللفظين في البنية لزيادة تسكينه ﷺ وتصبيره عليه الصلاة والسلام، وإنما دلت الزيادة من حيث الإشعار بالتغاير كأن كلاً كلام مستقل بالأمر بالتأني فهو أوكد من مجرد التكرار وقرأ ابن عباس «مَهّلهم» بفتح الميم وشد الهاء وموافقة للفظ الأمر الأول.